دراما تاريخية

محمد على
باشا الدهاء

عبد الفتاح مرسى

إهداء

دراستى الأكاديمية، تاريخية، لكن نقل ما فى الصحف أوالمراجع لايصنع رواية. بــل يعين فقط على كتابتها. إذ فى الرواية " رؤية وإبداع وموقف".

ومع ذلك فإن "الجبرتى" يستحق بأن أهدى له "تلك الدراما" التى تناولــت ألاعيــب "باشا الدهاء" ثم "حفلة القتل". التى أسست حكم محمد على فى مصر!

عبد الفتاح مرسى

عن هذه الرويـة:-

لفت نظرى بشدة، الأحداث الدرامية الزاخرة فى حياة "محمد علـــى أبـــراهيم أغـــا" مؤسس الدولة الحديثة فى مصر. ولما كانت التفاصيل تملأ مجلدات فقد فـــضلت أن أقـــدم – الرواية – فى مجموعة دوائر متقاطعة أو"متماسة!.

دائرة (١): محمد على وحياته فى قولة بألبانيا قبل أن يأتى إلى مصر، مع ذكر ظروف مجيئه إلى مصر.

دائرة(٢): الصراعات على مسرح الأحداث فى مصرعندما لم يكن أحد يعتد بمحمد على أو يعطيه أهمية، وكيف كان أذكى من الجميع ليكون اللاعب الوحيد على المسرح.

دائرة(٣): أستمالته اللقيادات الشعبية، ثم التخلص منها

دائرة(٤): التخلص من المماليك وكيف أتم خداعهم وقتلهم.

دائرة(٥): التخلص من بنى جنسه الأرناؤوط والدلاة ليؤسس جيشا حديثا مطيعا له فى مصر.

***

وفى ظنى أن القارئ أصبح من الذكاء أن يملأ الفراغات المتروكة عن عمد، بحكـــم ثقافته التى باتت فى مستوى ثقافة المبدع. نعم كان لمحمد على حلم شخصى. ولكن لطبيعـــة شعب مصر. تم المزج بين الحلم الشخصى والحلم العام. والغريب أن القوى التى أفسدت حلم محمد على، هى نفسها القوى التى أفسدت حلم عبد الناصر!..

فهل نعى الدرس؟!..

(١)

من قولة إلى مصر

* مدينة قولة فى ألبانيا، هى مدينة صغيرة.. أشبه بالمدن التى تقـع بـداخل دلتـا مصر، أو صعيدها. تعتمد على الحياة البسيطة من زراعة ورعى وتجارة وأسواق.. وأحولها تكون مستقرة، وكأنها كشوفية مملوكية. اذا ما أنصلح حال الحاكم وأسرته. نعم عندما تكون أسرة وحيدة. هى أسرة الحاكم – التى من أصل تركى عثمانى، هى الأعلى– أما بقية الألبان فهم أتراك بحكم المصدر القديم. وسيكون الأتراك قلـة. يمثلـون الطبقـة الغنيـة الثريـة الأقطاعية.. وتحت هذه الطبقة يقع فراغ لطبقة أو أثنتين.. ثم تأتى طبقـة المتنـورين مـن الألبان.. تعمل عمل الطبقة الوسطى.. ولكنها لاتشبه طبقة المماليك فى مصر– عندما كـان منهم شيخ البلد والكشاف والملتزمين.. وكان كل ما يهم الأتراك هو الحصول على "الفرضة السنوية" بواسطة الوالى، غير المؤثر على الحارة. والقرية. والنجـع.. أو حتـى أسـواق التجار.. وأرباب المهن.. وأرباب السجاجيد والعكاكيز والموقوفات للمصالح الخيرية!

***

لذلك لم يكن عدد كبير فى ألبانيا – وقولة بالذات له ذكر فى سجلات الدولة. اللهـم حكام المدن الألبانية.

ونظام الحكم هناك يعتمد على نفس العناصر التى حافظت على "تقاليـد وأعـراف الـشعوب المحتلة" من وال وحامية عسكرية وديوان يستبدل الوالى كل سنتين.. أو يثبت لسنة ثالثـة بفرمان جديد.. أما حكام المدن الصغيرة.. فقد كانوا أطول عمراً فى وظائفهم حتـى تحـدث حركة أصلاح أو تعديل – مؤثرة – وكان الحاكم فى المدن الصغرى يعتمد على تنظيم بـسيط لإدارة دفة المدينة..يكون أساسه الجابى والقاضى ورئيس الشرطة. والمجالس التى يعقـدها للنظر فى الشئون التى تهم مدينته فى أوقات دورية أو غير دورية..

وكانت "الشرطة " فى وظائفها الدنيا تتكون من الألبانيين – وليس لهم سجل رواتب فى الدولة. اذ يعتمد "عسكر الشرطة" على "حق الطريق والعلوفة"، وهبات المعاونـة، ومـا يفرض من غرامات على المخالفين من الأهالى..أى أن "عسكرى الشرطة" كان يعتمـد فـى معاشه اليومى على الأهالى أنفسهم – والمتتنازعين – أو على الأهـالى الـذين لايـدفعون ماعليهم من "فرضة وضرائب" للدولة. فتحصل الضرائب ومعها – الدمغة – من حق الطريق والعلوفة والزاد والزواد.. وبالتالى سيكون عمل الشرطة ليس له أجر محدد.وعند الضرورة، يتم تجميع المقيدون بالشرطة وإذا ما أنتهت الضرورة، يـذهب كـل شـرطى إلـى عملـه الأساسى. اذا ما كان مزراعا.. أو راعيا.. أو بائعا فى سوق ..وخلافه.

***

وفى مدينة قولة – كان "أبراهيم أغا" – يعمل عسكريا فى قوة حفظ الأمن " الشرطة" وكان له ولد أسمه طوسون وعدد من البنات جئن بعده.. ثم رزق بولد آخر.. أطق عليه أسم "محمد على".

وأبراهيم أغا الذى كان يعمل "حطابا" بجانب عمله فى الشرطة، حتى يـوفر لعائلتـه قوت يومها، عندما حمل بين يديه أبنه محمد على، كان حزينا أن والده يـأتى إليـه وهـو متعسر فى أطعام أخواته.. وكان فى نفس الوقت مسرورا بأنه رزق بـأبن ولـيس ببنـت، وبالطبع لم يكن يعلم مصير ذلك الطفل.. إلا أن كل ما يتمناه أن يستطيع تنشئته حتى يقـدر

على أن يلقط رزقه كبقية أخواته.. من أعمال الخدمة وجمع أخشاب الحطب من الغابات القريبة لبيعها أو مقايضتها بالتافه من الطعام!!.

كان مولد محمد على عام ١٧٦٩ م – أى بعد فتح الأتراك لمصر – ب ٢٥٢ عاما، وكان مقدرا له أن يتبوأ ولاية مصر عام ١٨٠٥ م وهو الذى لم يكن له درجة فى الدولة التركية.!!

أى أن محمد على، كان يبلغ السادسة والثلاثين من عمره عندما صار واليا. إذ كان شابا فى ذلك الوقت. ولكن لحيته "الشقراء" أظهرته مثل كهل ودكته الحياة..!

***

وبين التاريخ الأول (١٧٦٩).. والتاريخ الثانى (١٨٠٥) وقعت لمحمد على كثير من الأحداث.. بعضها لم يشارك فيها مشاركة فعلية، نظرا لصغر سنه.. لكنه ما كاد يشب عن الطوق حتى.. أظهر ذكاءاً خارقا. وهو الذى لم يتلق تعليما.. ولم يتدرب على القراءة و الكتابة لا بالتركى.. أو العربى..

إذا أن والده كان قد مات وهو فى الرابعة من عمره. فتولى أخاه طوسون رعايته – وهو فقير – وكان قد حل محل والده فى الشرطة، وكان طوسون يجد صعوبة فى الأنفاق على العائلة وعلى نفسه.

وحاول طوسون أن يثبت للحاكم بأنه جدير بوظيفة والده. بل أنه جدير بأن يرقى إلى أن يكون "مساعداً".. ليزيد من مدخولاته عند تقسيم" حق الطريق والعلوفة وما أشبه".

لكن سوء حظ طوسون – مع أندفاع الشباب كان يترصده، فقد تصدى لعصابة من قطاع الطرق وحرض من معه على أن يتصادم مع هؤلاء اللصوص ويبطل نشاطهم، وكان من نتيجة ذلك، إصابته فى مقتل.مات طوسون "العائل" البديل.. وتفرقت "أسرة أبراهيم أغا" على الأقارب والأباعد. كل من حصل على فرد منها. كان يعامله كخادم بحق الطعام التافه الذى يقدمه له، وينتظر أن تكبر البنت حتى يزوجها لمن يرغب!.

***

وكان أن شاهد حاكم قولة ذلك "الطفل" الذى لم يزد عمره عن خمسة سنوات. جميل الطلعة. فقد ضمه إلى غلمانه، وأعتبره إبنا من أبنائه. ومع ذلك فهو لم يلحقه بالتعليم إذ جعله خادما لأولاده من صلبه، وبذلك نشأ محمد على فى بيت "الحاكم" ولكن على ألتماس من خط الدائرة العائلية المرفهة للحاكم!.

***

وإذا ما بلغ محمد على مرحلة الشباب، ورث مهنة أبيه- عسكرى فى الشرطة، يحفظ الأمن ويطارد اللصوص وقطاع الطرق.!

الحاكم رأى أن شباب محمد على قد يغرى بنت من بناته بأن تقع فى غرامه، فعمل على إبعاد محمد على ذو الأصل الرقيق الغير مناسب للحاكم – بأن قدم له إقتراحا.. بأن يتزوج من أمرأة أرملة – من الأقارب الأباعد للحاكم – تكبر محمد على فى العمر – ولكن ما أغرى محمد على أن يوافقه على الزوج منها.. أن هذه السيدة كانت ثرية إلى حد أنها لن تطلب منه أية نفقات بل أنها أيدت استعدادا بأن تعينه ببعض المال على أن يبدل عمله من عسكرى شرطه غير نظامى. "إلى تاجر".. فيرفع نفسه درجة فى السلم الأجتماعى بقولة والتجار لهم مكانتهم فى المجتمع .. وهى مكانة تقع مباشرة بعد آخر وظيفة من وظائف الدولة، التى يتقرر لها راتب أو مخصصات. وهو الذى أبلى فى وظيفة الشرطة. وكاد أن يلحق بأخيه طوسون.. مقتولا.. مما حدى بالحاكم بأن يسارع ويبدل له تلك الوظيفة التى يلقى فيها الأخطار على يد قطاع الطرق و اللصوص.

ومعلوم بأن كلما أرتبكت أحوال الدولة فى "أسلامبول". تكاثر قطاع الطرق واللصوص فى أقاليمها وخاصة البعيدة..!

***

وبثراء الزوجة الأرملة. أبتعد محمد على عن أخطار مهنة الشرطة وأختار أن يعمـل فى "تجارة التبغ فى أسواق قولة.محمد على كان قد تزوج وهو فى الخامـسة والعـشرين. "وذلك عام ١٧٩١ ".

وظل يعمل تاجراً لمدة عشرة أعوام.. وقد أصبح قريبا من الحاكم قولة. وله حصان. وتجارة، وأتصالات حتى كان عام ١٨٠١ م..

عندما قرر أن ينضم إلى "القوات غير النظامية" المتطوعة لمحاربة الفرنسيين فـى مصر، إستجابة لنداء الجهاد الذى أطلقه السلطان فى أسلاميول ضد الفرنسيين.

وكان على جميع الولايات. بل جميع المدن فى الولايات أن تساهم فى ذلك الجهـاد لأسترداد ولاية عثمانية أقتطعت من الأمة الأسلامية بواسطة نابليون الذى أحتلها عام ١٧٩٨ م وخاصة وأن قوة أوربية عظمى – تمثلت فى الأنجليز ومن يحالفهم قد ابدت مساعدة فعالـة للسلطان ولمعاونته بأن يسترد ولايته بالقوة.

***

قام حاكم قولة بتكليف أبنه، بأن يترأس قوة غير نظامية (الباشبوزق) ويذهب بهـا إلى مصر. محمولا فى السفن الأنجليزية. وبافعل أمكن تجميع "ثلاثمائة فرد" من المتطوعين. كان من بينهم محمد على، فقد رأى محمد على أنها مناسبة مواتية أن يغادر قولة، ويبحـث لنفسه عن فرصة للثراء فى ولاية مصر، وسيكون قريبا من الشام!.

وقد ضاقت ألبانيا بطموحات ذلك الرجل، ولما كان محمد على يمتلك شيئا من المال، وله اتصال ببيت الحاكم، بل أنه كان يشارك أبن الحاكم فى حياته، وهو غلام. فقد قربه أبـن الحاكم منه ليكون معاونا "قائمقام" يحل مكانه. ويكلف بالأعمال الخطرة دونه!

***

كانت تلك القوة من الأرناؤوط الألبان.. وفيها عدد من المغامرين الذين يبحثون عن الفرص.فى الاخطار. وقد تعرض محمد على إلى أولى الأخطار. عندما كاد أن يموت غرقـا قبل أن يضع قدمه على تراب مصر.

ولكن الظروف ساعدت محمد على بأن ينجو من الغرق. عنـدما تـصدت طـوابى الأسكندرية للسفن التى تحمل عسكر الترك ودمرت بعضها، ومع أنه لايجيد فن العـوم فقـد (طبش) حتى كتب له النجاة!

"ولنا أن نتصور كيف ستكون الأحوال فى مصر اذا ما غرق ذلك الألبانى فـى ميـاه بحر الأسكندرية لتعرف كيف كانت شخصية ذلك الرجل مؤثرة على تاريخ مصر وما حولها.

لكن ذلك "الحادث" جعل أبن حاكم قولة لايواصل الرحلة، وآثر أن يعود – فترك الأمر لمحمد على ليصبح هو رئيس تلك القوة الصغيرة غير النظامية والتى تتكون مـن ثلاثمائـة فرد وبها أنضم إلى قوات (طاهر باشا) قائد الجند غير النظامين، فرقاه إلى "رتبة القائمقام".

بذلك وجد محمد على نفسه – قائمقاماً – لقوة كبيرة من الباشبوزق "العسكر غيـر النظاميين" تقدر بأربعة آلاف نفس. ليس لهم مخصصات أو مرتبات من الدولة. وقد منوهم بالمزايا والمراتب.. بل والراتب المنتظم، إذا ما أبلوا بلاءً حسنا..!

عندما لم يجد الجند غيرالنظامى شيئاً مما قدموه لهم من أمانى، فقد تمرد هـؤلاء العـسكر على طاهر باشا. بسبب الإعباء الموكولة على الجند غير النظاميين دون مكافأة تذكر. وحتى طعامهم وعلوفة خيولهم لم تكن متوفرة. وقيل أن محمد على هو الذى حرض طـاهر باشـا بأن يحاكم المتمردين، ويوقع عليهم العقاب القاسى، بأن يعدم بعضهم حتى ينتظم الآخـرون ويكفوا عن التمرد. وقيل أن هناك من سرب ماانتواه طاهر باشا ضدهم.. فـإذا بـالمتمردين يهجمون على طاهر باشا ويقتلونه. بينما محمد على كان فى متناول أيديهم، فلم يهاجموه..

بل أنهم سلموا له، وقد وعدهم بتدير علوفتهم ورواتبهم وطلب منهم أن يمهلوه فترة من الزمن، إذ قام بالاتصال بالقيادات الشعبية فى مصر – وأوهمهم بأنه يضع تحت أمرتهم.. أربعة آلاف "جندى" ليس لهم جهة تنفق عليهم. وليس لهم ذكر فى سجلات الدولة. وأنه على أتم استعدادا لتنفيذ مشيئة المشايخ والفقهاء بهم.. وأعترف أمامهم بأنهم هم القوة الحقيقية فى مصر وهو سيكون"خادمهم المطيع". وأبلغهم بأن النية كانت تتجه بأن يضع قواته تحت أمرة "المماليك". ولكنه فضل أن يأتى إليهم بها، على أن يعينوه على الأنفاق عليهم "وتدبير مرتباتهم وعلوفتهم وسكنهم.

واذا ما أجتمع مشايخ مصر وقيادتها الشعبية. لبحث ذلك العرض، فقد آثروا ضم تلك القوة إليهم وأن بعضدوها لتكون سنداً لهم. والفوضى قائمة فى مصر قبيل جلاء الفرنسيين وبذلك القرار.. أصبح – فى الواقع – "محمد على" هو اللاعب الأساسى على مسرح الصراع السياسى فى مصر. فقد تقوى هو الآخر بالقيادات الشعبية.

وخاصة وأن الحملة الفرنسية كانت قد أرهقت وآثرت الأنسحاب من مصر. بالرغم من أن الجنرال (مينو) أعلن أسلامه وأرتدى العمامة وتزوج من أمرأة مسلمة.

لكن الضغوط الأنجليزية على الأتراك بضرورة رحيل الحملة الفرنسية وعودة مصر ولاية عثمانية. كان يجد قبولا فى أسلامبول فالفتح الجديد يعنى موارد جديدة للباب العالى وكل فريق أسس موقفه فى مصر على الأطماع، محمد على جعل أطماعه متوارية، وأتسم بكثير من التواضع. وقد حافظ على القوة العسكرية التى تولى قيادتها. سليمة، من خلال سلسلة من المراوغات والمراهنات حتى كسب ثقة الطرفين المتناقضين..

الطرف الأهم عندة (وزراء) الباب العالى هناك فى اسلامبول والطرف الذى ضغط به هم "القيادات الشعبية" هنا فى مصر والتى كانت تحرك الشعب فى سلسة من التظاهرات والتمردات ضد من يختارهم وزراء الباب العالى ويرسلون بهم إلى مصر(كولاة) وقد جعل من قوة المماليك الممزقة والهاربة فى الجنوب هى الذئب الذى يهدد الأغنام العثمانية والأثرياء المحليين! وقد فتح نابليون شهيتهم لحكم بلادهم، لذلك حصل محمد على – فى سابقة لم تكن متاحة لأحد على فرمان بتوليته – بناء عن رغبة أهل البلد – واليا على مصر.. ومنح بذلك مركز اللواء. "الباشوية".

وقد تم له ذلك بعد أربعة سنوات من العمل الشاق فى مصر، عمل محفوف بالدهاء تارة. وبضرب القوى الأخرى ببعضها تارة أخرى. وفى كل خطر يقترب منه. كان يتهيأ للعودة إلى بلاده.. تاركا الجمل بما حمل.. وكان قد وصل إلى نقطة، أما أن يفوز بكل شئ.. أو يخسر كل شئ.. ويعود إلى قولة محافظا على روحه من الضياع!

أصبح محمد على واليا على مصر عام ١٨٠٥ م بتعضيد غير مسبوق من الأهالى. يقودهم المشايخ ويأتمرون بعمر مكرم النقيب.

هنا سوف يتوقف محمد على ليلتقط أنفاسه.. ويعيد دراسة الموقف من جديد. فهو فى منصب الوالى يختلف وضعه عما كان فى منصب قائمقام الباشبوزق أو حتى "المتولى" أمرهم بعد مقتل طاهر باشا..

والطاعة التى كانت تأتيه من قواته، كانت بسبب أنه بجهود شخصية ومحايلات وقناعات، كان قد ضمن لهم العلوفة والطعام والمسكن وبعض المال.. يحصل عليه من "القيادة الشعبية" فيزيد فى توزيع بعضه على "القيادات" فى قواتة ويمنيهم بالمزيد..

أما والولاية باتت ولايته، وأصبح باشا عثمانى.

الآن يمكنه بشئ من إقرار النظم وأبتكار مجموعة من "الضرائب والفرضة" أن تكون له موارده الخاصة، فالأمر بات يختلف من كونه ضابطا.. لفرقة من العسكر غير النظامين. وكونه والأن واليا على إحدى الولايات المهمة بالدولة العثمانية. ولاية تدير الرأس وتملأ النفس بالأطماع.

وبدراسته للموقف حوله. رأى الأمر قد أسفر عن ظهور قوة محلية حقيقية "في مصر" جربها سابقا إذا ما تشاور معها محمد على – وحركت الجماهير – كانت الفرمانات التى تأتى إلى مصر بتولية الولاة.. تخرق.. تباعا.. بل أن الولاة كانوا لا يتمكنون من الصعود إلى القلعة، ويعودون من حيث أتوا – وتلك القوة المحلية المؤثرة – والتى نصبت السيد عمر مكرم النقيب كبيرا لها – باتت مؤثرة بالفعل.

ورأى محمد على بأن ينمى تأثيرها ويساندها.. حتى يمكنه أن يمنطيها.. وتكون هى حصانه وسيفه ضد خصومه.

***

والسنوات التى كانت القوات الفرنسية تثبيت فيها أقدامها فى مصرلعبت القوى المحلية فيها دورا.. تنامى هذا الدور فى السنوات القليلة التى أعقبت خروج الفرنسيين من مصر.. وأمكن لمحمد على أن لايمكن أمراء المماليك من مراكزهم السابقة، باللعب بقوتين..قوة القيادة الشعبية من ناحية.. وأمانى الأتراك فى مصر من ناحية أخرى..

وقد أكتشف محمد على أن القوة المحلية فى مصر، والمتمثلة فى المشايخ والعلماء والتجار ومن تعاظمت أحلامهم على يد نابليون وأستيقظوا من سبات القرون الماضية..

هى "قوة عظمى" لم يقدرها أحد من اللاعبين الأساسين حق قدرها. وقد فطن لها وأرتمى فى أحضانها – وهذه القوة لاتفرق بين عثمانلى أساسى وعثمانلى بالأنتساب. بل لاتفرق بين قوة الجيش النظامى التركى.. وقوة الجيش غير النظامى المتطوع، فالأتراك عندهم سواء.. وأهم "شخصية تركية عندهم باتت "تخدم"على مصالحها هو "محمد على" فعشقوه واخصلوا له.

لذلك نادوا به واليا على مصر.. ليحكمهم فى الظاهر ويحكموا أنفسهم من خلف ستار – أو على الأكثر يشاركونه فى حكم بلادهم، خاصة وأن لاأحد من المشايخ والسادة المصريين، فكرفى أن يحكم مصر ويكون مستعداً أن يتصدى لتبعات تلك الخطيئة العظمى..!

وتاريخ على بيك الكبيرلم يزل فى الأذهان!.

***

ولما كان محمدعلى قد سيطر بطاعته وطيبته على القيادة المصرية وبشتى السبل.. بينما لم يهمل اللعب مع الأطراف الأخرى فى الصراع، فقد أفلح بأن يمسك بزمام الأمور تدريجيا. ولعل محمد على بدأت نفسه تتزاحم بالآمال العظمى.. وكان منتهى الآمال عنده، أن يحصل على.. "حصان عثمانى واحد".. فإذا بالآمال تتحقق وتجعله صاحب الاحصنة الثلاثة!!

***

"من الألقاب العثمانية – باشا بحصان – باشا بحصانين وباشا بثلاثة أحصنة. وذلك يعنى أن من يجمع لقبه الأحصنة الثلاثة يكون هو "الوالى". وقائد الحامية. والحاكم الذى يمكن أن يصدر قررات مؤثرة فى ولايته دون الرجوع إلى الوزراء الكبار بصفته نائب السلطان". ولكل وظيفة من تلك الوظائف "حصانا" أى مخصصات علوفة وأقطاع ومرتب.. وعادة ما يجمع القادة العثمانيين العظام بين أكثر من حصان.. أما إقصاها فهو الذى يجمع فى وظائفة – بالاحصنة الثلاثة.. فلكل حصان إقطاعه ومزاياه!.

ولما كان محمد على– ليس له أى حصان وجاء إلى مصر بدون أن يكون له أسم فى كشوف رواتب الدولة، ورأى مارآه فى مصر من خيرات ونعم وبيوت ووظائف وأقطاعات كانت بيد – المماليك – وغيرهم من بيوت المشاهير من الترك والشركس. ولكل أمير بيت كبير وبيت صغير لم يزل باقيا –على زمة أمراء المماليك وكشافهم وجنودهم

ومماليكم، فقد عمد محمد على أن يضع الاسافين بين القيادات الشعبية من المشايخ وأرباب السجاجيد وهؤلاء المماليك الذين بصعيد مصر..

فقد جعل الدولة فى أسلامبول – تعتمد عليه بأنه صمام الأمان لهم فى مصر مادم البعض يرى هناك أن ما حدث هو اعادة فتح لمصر.. وعلى الاتراك أن يستفيدوا من هذا الفتح الجديد وكفى المماليك ما حازوه وتنعموا به.. أو على أقل تقدير أن يتقاسم الأتراك المزايا مع المماليك فى مصر وأن لاتعود القوات التركية تمسك بقرون البقرة وتترك ضرعها يحلبه أمراء المماليك!.

***

والمعادل فى تلك اللعبة – أن قوة القيادات الشعبية من المشايخ وأعيان وتجار وأصحاب مهن وشيوخ حارات وملتزمين ومديرى اوقافات. وأصحاب سجاجيد تلك القوة تنامت، وبعضها، أشركه نابليون فى مجالسه التى أبتكرها. وكاد يقنعهم بأن مصر هى مصرهم.. وليست للمماليك أو الاتراك (ولكن الوقت لم يسعفه) وأى فقيه مصرى أو شيخ مهنه أو سيد سجادة أو راكب أوقاف.

أصبح له رؤيته الخاصة فى تك المسألة. لذلك ظلت الأوضاع فى مصر معلقة. وكل فريق يعمل على إفساد رغبات الفرق الأخرى، مما دعى – القيادة المحلية بأن تعتبر القوات غير النظامية التى يقودها محمد على بصعوبة، ويسيطر عليها بكثير من المشاق. هى من صمسم قوتها وتأمين سلامة الشعب فى حاراته وقراه ونجوعه وأسواقه.!

***

وهنا أدرك محمد على – برغم أميته وخبراته القليلة فى القيادة لألوف من "الباشبوزق" بأن ما يجرى فى مصر – عندئذ – يعبر حقيقة – عما آلت إليه حال الدولة العثمانية من الضعف والتخبط الذى جعلها مطمعا للدول الأوربية. بل ومطمعا للقوى المحلية، ورأى بأن مفتاح الدفاع عن "الدولة" المسلمة، يكون فى مواجهة التحدى المسيحى.. ببناء جيش عثمانى حديث (وقد أستعاضت أروبا كثافة الرجال والفرسان.. بكثافة النيران والبارود فبدأت الهزائم تلحق بالعثمانيين، هزيمة تلو الأخرى).

إذ أن محمد على كان قد أصابه الأعجاب الشديد.. بنظام الجيش الفرنسى، وشخصية نابليون.. وهنا قد يكون أحلام محمد على قد ولدت فى ذهنه وتلبسته فكرة أنه قد يكون المنقذ ليس لمصر وحدها ولكن للدولة العثمانية ككل!. لكن كيف له أن يحقق شيئاً مما يحلم به وحماسة الأمانى تمور فى نفسه – وهو مجرد "قائد" لقوات غير نظامية. هناك بداخلها عدد لايحصى من القادة "الزملاء". الذين يرون بأنهم الأجدر منه فى القيادة. والخبرة. وأنهم أشتركوا فى "تطوعات" ببلدان عديدة.. وعادوا لبلادهم.. ثم أتوا إلى مصر، وفى ظنهم أن "المسائل المعلقة قد حطت على أرض الواقع" فلا داع للتلكؤ والبقاء.. وأعمالهم فى بلادخم معطلة وفرصتهم لم تتحقق.

بينما محمد على لم يكن له من عمل الإ تجارة لاتحقق له الكسب الكثير وهو – اذ تركها – أنهارت. ولايتحمس للعودة إلى ألبانيا.. ويكون تحت أمرة حاكمها.. وهو هنا فى مصر.. قد رفعوه إلى مرتبة عالية، بل وأخذ بعض المشايخ.. و"خاصة السيد عمر مكرم" نقيب نقابة الأشراف – يلمح له بأن الأوضاع اذا سارت كما يتمنون وتم أفساد عمل الولاة الذين تواصل الدولة فى أسلامبول أرسالهم – فأنهن سينصبونه واليا.. ما دام قد وضع نفسه وقواته فى خدمة أهدافهم..!!

فكان زملاء محمد على يتعمدون أهانته أمام القيادات المصرية الشعبية، بل ويتصلون بهم ليدلونهم على الأقوياء المتأصلين منهم دونه. وأصبح الوقت أحد العوامل – والكل فى القوات غيرالنظامية يسعى للأستيلاء على أموال الأهالى بشتى الحيل.

***

ومعلوم للكافة أن القوات غير النظامية ليست أساسية فى نظــم الدولــة وترتيبــات الجيش العثمانى. وأنها مثل الشرطة وحفظة الأمن وعسكر الجباة تكون علوفتها على حساب القرى والنجوع والأسواق التى تحل بها. مقابل تنفيذ مهامها. تحصل على " حق الطريــق" بنسبة تقدر طبقا جهودها والخدمات التى تقدمها.وأن عسكرها من المتطوعة الذى يفتــرض أنهم يأتون للجهاد ولكسب ثواب الآخرة. فيكون على الفقراء من المال أن يعملوا والأثريــاء غير القادرين على "الجهاد" يزودونهم بالمال والعتاد وعندما تنتهى – الأزمة – التى تطوعوا لحلها.. يعودون إلى ديارهم ومن يتلكأ سيجد من يزجره.. بأن الأوضاع المعلقة حطت فــى أمان وأنتهى الأمر – وقد يتوجه المتطوع إلى ولاية أخرى تحتاج جهوده!

***

لكن لحسن حظ – هذه القوات غير النظامية ومحمد على على رأسها، أن الأوضــاع المعلقة فى مصر.. بقيت معلقة ولو بفعل فاعل، فأن – حكام مصر من المماليــك – والــذين واجهوا غزوة نابليون لبلادهم وخارت شجعاتهم وبسالتهم أمام كثافة النيران والبــارود رأوا بأنهم الأحق بأن يعودوا إلى (مصر) وإلى مراكزهم ومزاياهم بعد أن اجبرت القوات الفرنسية على الرحيل.. وسارع الألفى بيك بالاتصال "بالقوات الأنجليزية" لتثبيت أوضاعه فى مــصر، ولكى يضمن للأنجليز مركزا متميزا على أرضها بحكم أنهم شركاء فى طرد الفرنسيين!

***

ولكن الأتراك كان لهم رأى آخر – فى هذه المسألة، فما حدث أعتبروه فتحا جديــداً لمصر.. وطمع الأتراك فى الوظئف والمزايا بداخلها، كما أن الباب العــالى رأس أن يخــرج مما حدث فائزا.. بأن يبيع كل المزيا لمن يرغب بالثمن الذى يرى فيه تعويــضه،فقد قــدمت الدولة رجالها – وعاونها الأنجليز حتى ثم أجلاء فرنسا عن مصر.

لكن بعد ذلك.. كل من الأنجليز وتركيا.. والمماليك.. والقادة المحليين.دخلــوا فــى صراعات وهناك ما عرقل أطماع الأنجليز فى مصر فأجلوا الأعلان عنهــا أنكــشاف أحــلام نابليون فى تأسيس أمبراطورية فى أوربا بعد أن فشل فــى أقامتهــا بالــشرق – متــشبها بالأسكندر الأكبر – فالصرعات الأوربية احتدمت. ولعل الاتــراك رأوا أن الفرصــة مواتيــه فأعتبروا أنفسهم قد أعادوا فتح مصر من جديد وخلصوها من الفرنسيين والمماليك الــذين كانوا قد أضعفوا – الروابط العثمانية فى مصر إلى درجة – أن مصر كانــت فــى عهــدهم الطويل ولاية شبه مستقلة ومن الناحية الأخرى. الأنجليز لايريدون عائقا بين جزرهم ودرة التاج البريطانى "الهند" –فرأوا بأن سياسة الأنتظار لم تزل فعالة مادام الفرنسيين أزيلوا من الطريق!.

***

إلى هنا وقد تبدو مسيرة محمد على – مسيرة عادية ليس فيها ما يلفت النظر – إلا أن له حظ ممتاز فى أن يأتى من قولة مساعداً لابن الحاكم – رئيس وقائــد القــوات غيــر النظامية التى لاتزيد عن ٣٠٠ فرد –بحكم أنه خادمه السابق– فيجبن ويعود ويتركه قائــداً لهذه القوة – وينضم – طبيعيا – إلى جند طاهر باشا، مثله مثل غيره ممن أتوا بقوات غير نظامية..

لكن دهاء محمد على و خشيته من الفشل والعودة للفقر والعوز فى قولة. هو الــذى جعله يحرض طاهر باشا على عقاب المتمردين المطالبين بحقوقهم من بين قواتــه، حتــى وثبوا عليه فاغتالوه..

ولكن الطبيعى أن يتم أغتيال "القائمقام" أيضا. عندما تكون "القيادة" موحدة وتواجــه أزمة.. ولكن ما أسفرت عنه تلك الأحداث "ليست طبيعية" – فالقائد للأربعة آلاف باشبوزق يقتل.ونائبه – يحل محله ساعيا لحل مشاكل هذهالقوات بواسطة "القيادة الشعبية المــصرية"

وتكون أولى قرارته(المسامح كريم) والعفو عن الجناة وإذا كان ذلك (الحل) كان عند محمد علي..فلماذا لم يستخدمه ويقدمه لقائدة طاهر باشا؟!
هنا يجب أن نقف قليلا ونتأمل ما حدث..؟!

***

عندما برز دور محمد على على مسرح الأحداث. وقد أسكن قواته فى بيوت "شعب مصر" مع أشاعة ما فعله الانصار للمهاجرين تحت دعوى أن ذلك الأرناؤوطى جاء ليموت من أجل "المصرى" وأنه سيحارب له معاركه ويحميه ويدافع عنه، فلا أقل من أن يستضيفه فى بيته أن يقتسم معه ممتلكاته وحريمه، كما فعل الأنصار. بل هو ضيف له مهمة محددة سيقوم بها ويرحل. وكرم الشعب المصرى ليس له حدود، خاصة اذا كان بموافقة ومواعظ الفقهاء المشايخ فاستقرت الأوضاع للوالى الجديد.. وبدأت مسيرته.يملأ الهواء أشرعة سفنه".

وكان على "الباشا" وهو فى سن السادسة والثلاثين – أن يتحسس الأخطار التى تحيط به. وجدها ثلاثة أخطار، كل خطر منها يمكن أن يقوض له طموحاته ويبعثر له منصته التى بناها مدماك بعد مدماك..!

الخطر الأول:

تمثل فى أمراء المماليك المتكرنكين فى صعيد مصر يتحالفون مع العربان، وجزء من القوى المحلية، ويقطعون عن العاصمة ما يرد إليها من الجنوب وخاصة الحبوب ويشكلون قوة محاربة لاتنقصها الشجاعة، وخبرة القتال وفنونه. قوى قلوبهم أنهم أصحاب حقوق فى مصر. وأنهم حاربوا الفرنسيين وخسروا الكثير فى ذلك (الجهاد) الذى يقدره لهم قطاع من الأهالى، تترابط مصالحهم معهم.!

***

الخطر الثانى:

هو خطر القوات غير النظامية، وخاصة كبار طائفته من الارناؤوط والدلاة الذين يرونه قد حصل على أكثر مما ينبغى، وترك لهم الفتات، وأنه أستغلهم ليصعد على أكتافهم، فباتوا لايطيعونه دائما. ويكثرون من الشعب والتمرد والأستيلاء على ما بيد الأهالى، فيثير ذلك (المشايخ والعلماء والتجار) وهم عدته التى نصبته. ولا يريد أن يظهر أمامهم ضعيفا متخاذلا.. كما أنه لايريد أن يتهور ويفرط فى هذه القوة التى تمثل عدته!

الخطر الثالث:

كان –فى نظره – يتمثل فى المشايخ والعلماء والتجار أنفسهم. وهم الذين رفعوه إلى دكة الولاية بغرض أن يحكموا مصرهم من خلاله وسيكون عليه أن لايقر شيئا إلا باستشارتهم. وأن لايطمح لشيئ إلا بعد أن يستأذنهم. وهو بطبعه العثمانى، يرى أنه فى مرتبة لاتؤمر من الرعية، بل أنه جاء ليؤمر فيطاع..!!.

(٢)
(محمد على) يستفيد
من حملة الأنجليز على مصر

لم يكن محمد على قد وطد دعائم حكمه فى مصر.. اذ لم يمض عامان، حتى وصل خبر نزول حملة فريزر الأنجليزية - بالأسكندرية.
أرتبك محمد على أرتباكا شديدا. فقد كان يحارب البكوات المماليك الذين تحصنوا فى الصعيد وقطعوا عن (مصر) الغلال وخيرات أخرى كثيرة، كانت تأتى من الجنوب وأضطر محمد على باشا أن يهادن البكوات ويرسل لهم من يصالحهم على ما يريدونه ويقرونه، طلباً للسلم والمصحة العامة. وقد ثبت فى يقينه بأن الأنجليز سوف يستولون على الديار المصرية. فهم الذين عملوا مع العثمانيين على طرد الفرنسيين من مصر. وظهر بأن فى العالم الغربى قوتان متنازعتان هما الفرنسيين والأنجليز. وأن قوة الأنجليز باتت عالية فى البحر، بينما قوة الفرنسيين عالية فى البر.
هنا عزم محمد على، على العودة إلى "ديارة" مع حيذ الأرناؤوط، فهو قد حسبها وجد أنه لاقوة له بأن يتصدى للأنجليز بأسلحتهم الحديثة. فأعد العدة بأن يتوغل شرقا إلى الشام. ويكون له عذره بأنه "قائد قوة غير نظامية أدت ما عليها من مهام فى مصر. وحصلت على أجرها وعادت إلى ديارها. وعلى الدولة والسلطان أن يقررا ما يرونه من شأن الأنجليز الذين يعضدون الألفى بيك " أمير أمراء المماليك فى مصر".
لكن ما لم يكن فى الحسبان - أن شعب مصر من الفلاحين والعربان والمغاربة، ومن كان لهم تواجد فى نواحى رشيد والحماد والأسكندرية من الترك أو غيرهم. قاموا بصد العدوان. وأوقعوا بجنود فريزرمقتلة عظيمة وذلك عندما أخلى الأهالى رشيد، فدخلها فريزر مطمئنا بجنوده. وقد أعدوا العدة بأن ينقضوا عليه. وكانوا يختبئون أستعداداً للمصادمة وقد أسفر ذلك عن هزيمة الأنجليز. وقد غنم الأهالى الكثير من أسلحتهم وعتادهم، مما جعل الأهالى يطاردونهم، وكل من يأسرونه أو يقتلونه أو حتى يجرحونه يرسلونه إلى الوالى فى (مصر) لحصول على البشارة!.
إذ أنه بعد مقتلة رشيد أنسحب انجليز إلى الأسكنرية يتحصنون بها، ولم تكن الأسكندرية تحت سلطة الوالى حتى ذلك الحين!!

***

ومع وصول شرازم من الأسرى الأنجليز وأعداد من رؤوس القتلى إلى القاهرة. هدأت نفوس عسكر الوالى وكان عسكر الوالى قد بدأو فى تصفية اعمالهم وجهزوا أنفسهم للهرب - لكن بعد أن علموا بما حدث فى رشيد طمع العسكر فى الأنجليز. وتجاسرو عليهم. كما أن أهل البلاد قويت شوكتهم وقد تنادوا بالجهاد. وكانت لهم اللبروز والمواجهة، فأشتروا الأسلحة التى كان محرما على الفلاحين حملها.
وكان أن المتطوعين نصبوا لأنفسهم البياريق والأعلام وجمعوا من بعضهم الدراهم. وصرفوا على من أنضم إليهم من الفقراء. وخرجوا فى جمهرة كبيرة تطبل لها الطبول، وتزمر لها الزمامير. وقصدوا - فى جرأة غريبة - معسكرات الأنجليز ومنازلهم بالأسكندرية.
وكان عدد الأنجليز فيها لايتجاوز الستة آلاف فرأوا ألوفا من الأهالى قادمين نحوهم يتصايحون ويطبلون ويزمرون ويثيرون حوالهم الغبار وتبرق فى أياديهم السيوف

والسكاكين. وكان بعضهم يحمل البنادق. وقد هجموا على معسكر الأنجليز من كل ناحية على غير تنسيق أو خطة أو ترتيب وصدقوا فى الحملة على الأنجليز. وقد ألقوا بأنفسهم فى النيران غير مباليين بمن يسقط منهم قتيلا أو جريحا. وأمكن لتلك الجمهرة ذات الضجة الهائلة أن توقف المدافع والبنادق الأنجليزية فقد أختلطوا بالأنجليز وصدموهم فى مكانهم أمام ضجة اتكبير والصياح، فإذا بالأنجليز يلقون بالسلاح ويسلمون أنفسهم للأهالى، فيوثقونهم بالحبال ويرسلونهم إلى الوالى فأن تقديم أسير للوالى يمكن أن يحصل آسره على ثمن يفوق مقتله فالقتل قد لايعود عليه بفائدة. ومع ذلك فقد قام الأهالى الغاضبين بذبح المئات من الأنجليز وأحضروا رؤوسهم فى سلال وأجولة إلى الوالى بالقاهرة، الذى كان يتباطأ فى تجهيز قوته والحضور إلى الأسكندرية!

***

والغريب أن الوالى وعسكره الذين كانوا فى حالة أنهيار وسربعة على الهروب من مصرانتفشوا وانتفحوا بالطمأنينة. ونسبوا ذلك النصر لأنفسهم. فقطعوا مئات من آذان قتلى الأنجليز وأرسلوها إلى السلطان فى (اسلامبول) لكى ليحصل الباشا وعسكره على المكافآت الأضخم.

واذا ما وصل عسكر الوالى إلى دمنهور ورشيد والأسكندرية وجدوا كل شئ ممهد وكان ذلك على حساب الأهالى. ليزيد خراب ديارهم خرابا.

***

وكان الأهالى قد أسروا عددا من أولاد الأنجليز صغار السن، وهم يعملون كصبية، إذ أن نظام التجنيد الأنجليزى، كان يسمح بوجود (مساعد، صبى) وقد سعى الأرناؤوط والدلاة من العسكر فى الأستحواز على (المردان). والمردان هم غلمان الأنجليز الذين جاءوا مع الحملة. اذ أن كل كبير من العسكر خص نفسه بعدد منهم. ألبسوهم من ملابسهم. وباعوهم فيما بينهم. وفسقوا فيهم. وكانوا يتباهون بما لديهم من مردان. ومن المردان من حاول الخلاص من يد الفاسق الذى يحوزه. بحيلة لطيفة.

إذ أن غلاما أنجليزيا قال للذى يحوزه :

– يا سيدى عندى سر أريد أن أفصح به لك أنا لى بوليصة عند قنصل الفرنسوية. والبوليصة بمبلغ عشرين كيسا. اذا جعلتنى أستردها، أدفعها لك لأشترى نفسى. وأكون لك بمزاجى!

– يعنى لن تغادر بيتى؟

– وإلى أين أذهب ياسيدى.

فرح الرجل وقال للأمرد :

– دعنى أشاهد تلك البوليصة.

فأخرج له الغلام ورقة مكتوبة بلغته، فلم يفهم الرجل ما بها أخذها منه، وذهب بها إلى قنصل الفرنساوية. وأبلغه بأن فى حوزته غلام أنجليزيا. يدعى بأن له عندك مالا وهذا هو المستند. (فلما قرأ القنصل الفرنساوى المستند أدرك أنها رسالة أستغاثة. قال القنصل للأرناؤوطى:

– أنا لن أعطيك "الدين" إلا أمام الباشا محمد على. ليكون شاهدا على خلاص ذمتى.

وصحبه إلى الوالى فى القلعة.فلما صار بين يدى الباشا. قام القنصل بأخبار الباشا بأمر ذلك الغلام الأنجليزى الذى أرسل بأستغاثة مكتوبه للباشا بواسطته فأمر الباشا بأن يحضروا الغلام أمامه، حضروذكر بأنه فعل ذلك لأنه يريد الخلاص من ذلك "الفاسق" وأنه أنضم للحملة ليكون جندياً، فكان مصيره هذا المصير المؤلم فما كان من "الباشا" إلا أن راضى العسكرى بدراهم من عنده وضم الغلام إلى بقية الأسرى بالقلعة، لحين أنتهاء

المفاوضات بين الباشا والأنجليز. وهو يطالبهم بضرورة الأنسحاب على وجه السرعة وترك الاسكندرية فى الحال.

***

وقيل أنه لما أنقضى أمر الحرب من ناحية رشيد وأضطر الأنجليز إلى الأنسحاب عنها واللجواء إلى قلاع الاسكندرية.

نزل الأتراك من عسكر الباشا على الحماد وماجاوها، وعلى رشيد، واستباحوا ممتلكات الأهالى هناك وأستولو على النساء والغلمان والأموال والماشية زاعمين أن هذه الأماكن صارت دار حرب بنزول الأنجليز عليها ومن يرى له حقا من حقوقه، فليساوم ويشتريه..!

وقد أرسلت الأستغاثات إلى مشايخ مصر للشفاعة عند الوالى ونجدتهم..

ولكن الوالى كان يجد صعوبة فى السيطرة على قواته. وبها من يعانده ويسعى إلى تكوين ثروة، ويتقول بأن الوالى ما هو إلا زميل لهم، كان أهله يتحطبون، وقد وصل إلى ما وصل إليه، فلا يعوق مسعاهم وإلى الثراء" وقد أتم عسكر الترك القضاء المبرم على كل ما أنقذه الوالى من يد الأنجليز فى تلك النواحى..

والوالى لا يريد أن يعاقب أحدا.. من قواته التى تخالف تعليماته ووصاياه، فهو يعم ما حدث لطاهر باشا عندما قتلوه، لأنه أراد أن يفرض عيهم النظام الذى يراه صحيحاً..

وكان (محمد على) يتعجل رحيل الأنجليز بالشروط التى يرونها وقد انهكتهم غارات الأهالى والعربان على حشودهم..

***

وكان أيضا من أسباب "فشل حملة فريزر".. وفاة الألفى بيك فى الصعيد. وقد خدع الأنجليز فى قوة المماليك التى فسوف تستقبلهم كمعاونين لحكمهم..!

***

<u>٦ أكتوبر ١٨٠٧</u>

ورد إلى الديار المصرية، رسول من عند السلطان، ويسمى (القابجيى) بخيت أفندى. فوصل إلى بولاق، وكان وروده من ناحية دمياط، إذ جاء عند طريق البحر. فلما علم أن اباشا محمد على موجود بناحية البحيرة بسبب التفاوض على مغادرة الأنجليز للأسكندرية وركوبهم سفنهم على شروط الأنسحاب من مصر بعد فشل الحملة. قام نجيب أفندى بالتوجه إلى دمنهور. إذ أنه جاء للباشا محمد على بأشياء وهدايا مخصوصة من السلطان الذى أعجب بالقضاء على "حملة الأنجليز" فى وقت قياسى. وقدم القابجيى للباشا قفطان وسيف وشلنج. كما قدم لكبار "عسكر الباشا. خلعا، فتسلم حسن باشا وطاهر باشا، أقارب الوالى الذى جعلهم رؤساء عى الجيش – وعابدين بيك. وعمر بيك. زملاء الوالى. وهم رؤساء للجند، وصالح قوج، خلعهم السلطانية.

***

وكان الباشا مشغول بتسليم الأسرى الأنجليز ونزولهم فى المراكب. فنزل القابجى ببيت محمد الطويل. وقد ضربوا له مدافع من القلعة.. "وسبحان الله". شعب رشيد والأسكندرية والحماد يدفع ثمن التصادم مع الأنجليز. وقد تأخر قدوم عسكر محمد على حتى ظهر نصر الأهالى على الحملة العجيبة. ويقوم السلطان بمكافأة الوالى وبطانته. ومعلوم أن محمد على عند قدومه من قولة بألبانيا مع الأرناؤوط غير النظاميين. كان منقولا بالبحر

بواسطة الأنجليز. وتعرض للغرق فى البحر ولكنه تمكن من النجاة فى آخر لحظة.. وأتفق أن الباشا فى حال رجوعه من الأسكندرية بعد أن أشرف انسحاب الأنجليز وفى حال نزوله فى سفينة صغيرة وبصحبته حسن باشا وطاهر باشا وسليمان أغا الوكيل السابق. انقلبت بهم السفينة الصغيرة. واشرف.. ثلاثتهم على الغرق، ولكنهم تعلقوا بحافة السفينة المقلوبة، حتى لحقت بهم مراكب أخرى، وأنقذتهم. وطلعوا سالمين. وكان ذلك قد حدث عند زفتى وميت غمر. ولما طلع الوالى من الماء مبلولا أبلغوه ببشارة. بأنه رزق مولود من محظيته. وضربو له شنكا. وسارع الباشا للوصول إلى "مصر"!!.

***

<u>أكتوبر ١٨٠٧ م</u>

كان الأنجليز قد غادروالأسكندرية على أتفاق مكتوب بينهم وبين محمد على، على أثره تسموا موتاهم وأسراهم.

حدث ذلك فى النصف من سبتمر ولكن فى التاريخ المذكورة عالية وصلت جملة من العساكر التركية بغرض المساهمة فى أخراج الأنجليز من مصر.

وكان وصولهم بعد أنهاء أمر الأنجليز بأكثر من أسبوعين. وكان الوالى محمد على يعرف أن بالطريق إليه جملة من عسكر الترك. فأرسل لهم يبلغهم بأن الأمر أتقض على خير. ولكن عسكر الترك واصلوا المسير نحو مصر. ودخلوا القاهرة. وطلبوا كالعادة. سكنى البيوت المسكونة، فأزعجوا الناس، زاعمين بأنهم جاءوا لأجل حماية الأهالى، وأنهم يعرضون أنفسهم للموت فلابد وأن يتحمل الأهالى كلفتهم وسكناهم.

***

وعلى ذلك أخرجوا الأهالى من منازلهم وشاركوهم فى أرزاقهم، بل والبعض طلب الزواج من " النساء" على سنة الله ورسوله أو يثور ويهدد بالتعارض عن سنة الله والرسول، وأعتبار من يتزوجها جارية له.

وضجت الخلائق بالشكوى، وذهب الناس يشكون من مظالم عسكر الترك للشيوخ. فكتب بعضهم "عرض حال" فى ذلك الشأن، وأشهدوا عليه السيد عمر مكرم "النقيب" وعدد من المشايخ الكبار. وأرسلوا إلى "كتخدا بيك" وكيل ومحافظ العاصمة – وأظهر الرجل شيئا من الأهتمام حتى يهدئ من ثائرة الأهالى. وأحضر طائفة من العسكر أعتبرهم من كبارهم. وكلمهم فى ذلك على مسمع من المشايخ والأهالى. لكنه كلام لتطييب الخواطر، وليس لأعادة المظالم.

وزاد الطين بلة، عودة العسكر الذين تحركوا من القاهرة إلى دمنهور ورشيد والأسكندرية. عادوا فوجدوا البيوت التى أغتصبوها من الأهالى مسكونة بغيرهم. فتقاسموها مع الآخرين، أو بحثوا عن غيرها. وبذلك ضاق الخناق على الأهالى الذين كانوا يكتفون بالطوابق العليا ويتركون السفلى للعسكر وخيولهم. وبات العسكر يشاركونهم فى الطوابق العليا ويهتكون ستر حريمهم وأسرارهم، فرحل الأهالى من بيوتهم ولم يرحل أحد من العسكر. وكان هؤلاء العسكر يشاركون الأهالى فى أرزاقهم وتجارتهم. وينقبون عن أى شئ ثمين يستولون عليه. إذ كان بعضهم يطلب هدايا وملابس وأوانى أو مال ويعطى وعداً بأنه سيرحل عن البيت إلى مكان آخر. واذا ماجاء له الأهالى بالمطلوب أستولى عليه وأجل الرحيل إلى وقت آخر!

***

واذا رحل العسكر عن بيوت الأهاى كانوا يتركونها خرابا، إذ يستولون على أخشابها ويبيعون أبوابها. ويتروكنها كيمانا..

واذا ما تحدث السيد عمر مكرم النقيب مع الباشا بأن يكـون للعـسكر"معـسكرات" وأماكن تبعدهم عن الأحتكاك بالأهالى، وطرق الباشا موافقا. كان شيخا آخر يهمس فـى أذن الباشا بحكاية المهاجرون والأنصار. عندما تقاسم الأنصار أموالهم ومساكنهم ونسائهم مـع المهاجرين. يغريه بأن الأنسان المعرض للموت هو أحق بأن نرعاه فى عمره القصير

فكان الباشا الذى فكر فى بناء وطاقات للعسكر لعزلهم يعود ويتقاعس عن ذلـك. اذ كيف يعزلهم ويكون مكلفا بأعالة العسكر، بينما الكفالة واقعه على رأس الأهـالى؟ بـل أن العسكر فى عمليات نهبهم المستمر للأهالى هم فى حالة أنشغال عنه!.

***

لكن العسكر الأرناؤوط والدلاة أفحشوا فى التعدى على الناس وغصب كل شئ يملكه أهل مصر. إذ تأتى الطائفة منهم إلى الدار المكشوفة ويدخلونها فى غيـر أحتـشام ولا إذن. ويهجمون على سكن الحريم بحجة أنهم يعاينون أعالى الدار... فتصرخ النساء، ويهجـرن أماكنهن ويجتمع أهل "الخطة" ويكلمونهم بالحسنى فلا يلتفتـون إلـيهم. ويتكـاثر الأهـالى يزمجرون بالغضب. اذا ما شاهد العسكر قوة الأهالى وتجمعهم تساهلوا وسـكنوا الطوابـق السفلى وأحتشموا إلى حين. أما اذا كان للعسكر الغلبة فهم سادرون فى غيبهم.

وللعسكر الأرناؤوط والدلاة ألاعيبهم فى التحايل على فتح البيوت لهم. اذا ما سنكرت أبوابها الغليظة فى وجوههم، فقد يتقدم كبير من العسكر إلى صاحب الدار. ويخاطبه بـاللين والمحايلة (– يأخى ياحبيبى أنا معى ثلاثة أفراد أو أربعة لاغير، ونحن فى مأموريـة لـن تستغرق ثلاثة أيام على الأكثر، إذا سمحت لنا بلأستضافة لنقيم فى محـل الرجـال بالـدور الأرضى وأنت وحريمك وعيالك فى الدور العلوى. سنكون لك شاكرين بل إننا سنكون، لـك خير وبركة). فيظن صاحب الدار صدقهم ويمضى بذلك على تخوف فيفتح لهـم ويعبـرون ويسكنون فإذا بالثلاثة يتحولون إلى عشرة أو يزيد. واذا ما ربطوا خيولهم فى الدور الأسفل فهم سيصعدون للدور العلوى، فيطفش الحريم ويحتلونه. ويكون صاحب البيت قد رفع مـن الدور الأسفل الفرش والأثاث الذى يخشى سرقته وتدميره فيستخدمون كل شئ ويـستولون على الأوانى النحاس فيمتلكونها أويبيعونها لأنفسهم. مثل الطشوت والأباريق وغير ذلـك وصاحب البيت يراهم قد تكاثروا وبأيديهم الأسلحة ويضيق المكان بهم وبه إذ أنهم قد انقلبوا إلى الوقاحة والصرامة فيترك لهم البيت بما فيه، وينجو بعياله وحريمه، وهو يرى نظـرتهم الوقحة إلى النساء وأذا تكلم أو أستاء. قالوا له (زوجنا من حريمك وأقاربك فنحن مـسلمون وأطهار).

***

وهم فى كل الأحوال سيحيلون البيت إلى أصطبل. ويحرقوا الأبسطة والفرش بجمـر الزاحيل إذ أن قد تدخينهم التمباك دائم واذا شربوا البلح عربدوا وصـرخوا وصـفقوا بمـا لايتلائم وعادات المصريين. وقد أستحال البيت إلى خمارة تصدر منه رائحـة العرقـى، وإذا حاول صاحب البيت أن يغادر، فيتركه لهم، فهم يمنعونه من أخذ مواعينه ولوازمه. قـائلين "على أى شيئ ننام؟ وكيف نطبخ طعامنا؟ وعلى أى شيئ نجلس؟ نحن ندفع عـنكم الكفـار الذين يريدون أستعبادكم وتعاملونا هذه المعاملة؟!.

وينتهى الأمر بين الضيف والمضيف بأن يعرض عليهم صاحب البيـت أن يتقاسـم معهم كل شيئ. لكنهم اذا وصلوا إلى ذلك الأتفاق أظهروا بأن عددهم كبير، بينما هو يستطيع أن يلجاء إلى أقاربه وأخواته. وربما تقاسموا معه أملاكه على عددهم وأظهـروا بأنـه لـن يحصل على شيئ. فيترك لهم الجمل بما حمل. ناجيا بشأنه وعياله والشكوى للمـشايخ لـم تكن تجدى. والشكوى اذا رفعت للوالى كان يطيب الخاطر بكلمتين حلوين. ويرجو الأهـالى الأنتظار على أساس أن العسكر على أهبة الرحيل فى مأموريات حربية وقتالية. ولن يتـأخر ذلك طويلا، وهم سيذهبون ويبعدون بعيداً..

(وياجماعة فات الكثير ما باقى إلا القليل)..

***

والمصيبة أن العسكر كانوا يبيعون أماكنهم التى حازوها بالصفاقة لعسكر غيرهم، لايكون قد أصابهم الدور فى المأموريات. وهذا الأمر كان يقع لأعيان الناس والمقيمين بالبلد من الأمراء والأجناد (المماليك) وأتباعهم. وكانوا يفعلون ذلك فى أماكن محددة، بينما كانت للحارات المغلقة حرمنها، أو خوف العسكر الترك من الأغلبية التى ستكون بداخلها. إذا ما حدث نزاع بينهم وبين أصحاب البيوت هناك. فكانوا يسكنون فى الحارات المغلقة. والأماكن التى يرونها مقدسة مثل نواحى المشهد الحسينى. وخلف الجامع المؤيدى والخرنفش. والجمالية..

ولكن بمرور الوقت وتكاثر عسكر الترك والاضيش الوالى. فقد أمتد سكناهم إلى عدد كبير من الحارات. على أساس أنهم صاروا أصحاب بيوت البكوات الفارين إلى الصعيد. ورحوا على الأماكن التى كانوا يخشون نفوذ المشايخ فيها!

***

ومما يذكر أن كبير من عسكر الترك دخل بطائفته إلى منزل فقيه معتبر. وأمره بالخروج من المنزل ليسكن هو. فأخبره الفقيه بأنه من (مشايخ العلوم الدينية). وكان للمشايخ أحترامهم وخشيتهم – فلم يلتفت كبير عسكر الترك إلى قوله.. وكان من الشيخ الفقيه أن أرتدى عمامته وكاكولته وركب بعلته وتوجه إلى أخوانه المشايخ وأستغاث بهم. فنادوا فى الناس بالحضور وخطبوا فيهم حتى أثاروهم وتم وتجمعهم وثار ضجيجهم وقد توجهوا إلى بيت الفقيه.. واذا ما شاهدهم كبير عسكر الترك مع طائفته. وقدر غضبهم وعددهم .. وأن طائفته هالكة معه اذا قرر أستخدام القوة، فقد مال إلى المسالمة وأنه منسحب لساعته بترضية، فجمع الأهالى له قروشا ودفعوا لطائفته الترك مائتى قرش. وأهدوا لكبيرهم "شال كشمير" حتى جمع خيوله وأسلحته وخرج من الدار. مضى سائرا لمسافة قليلة ثم توقف وسأل وهو يشير إلى دار معتبرة أخرى.

– دار من هذه ؟

فقالوا له:

– هذه دار أسماعيل أفندى صاحب العيار بالضربخانة وهو رجل معتبر ومعروف لجانب الوالى.

ففكر كبير عسكر الترك قليلا ثم قال.

– يعنى ليس شيخا يمكن أن يستميل العامة ويعصيهم ضدنا؟

وعلى الفور أقتحم الدار، عندما تأخر الخدم فى فتح بابها. وجاء أسماعيل أفندى يحايلهم ويهددهم بأن سيرفع الأمر للوالى.

قالوا له :

– يأسماعيل أفندى. أنت رجل مستنير وموظف كبير فى معية الوالى. أستضفنا ليومين، بالكثير ثلاثة أيام ونرحل.

ودخلوا داره. ولم يغادروها. وقدم لهم خمسمائة قرش وشال كشمير فأخذو القروش والشال. وأرجأوا الرحيل.. عدة أيام أخرى. ولما كانوا يحلفون بأنهم راحلون بعد يومين. ثم يمكثون مرة ثانية، فقد رفع أسماعيل أفندى الشكوى للباشا وللكتخدا. فقال له الكتخدا:

– يا أسماعيل أفندى. ربنا موسعها عليك وعندك بدل البيت أثنين أو ثلاثة، لولا هؤلاء العسكر ما كانت لك الوظيفة المعتبرة بالضربخانة. الا تسعهم فى بيتك لمدة عشرة أيام بالكثير؟ نحن سوف نجهزهم للسفر إلى الصعيد ولارغام البكوات المماليك على العودة، ووقف قطع الغلال قد يموت معظمهم هناك. وقد يبقيهم الباشا فى تلك الأقاليم البعيدة عليك بالصبر.

أسماعيل أفندى أمام حديث الكتخدا – سكت وسلم أمره لله وقد أخلـــى للتـــرك بيتـــه وسكن بعياله بعيداً. والغريب أن عسكر الترك عندما جاء لهم الطلب للسفر إلى وجه قبلـــى. تفاوضوا مع أتراك أخرين لشراء البيت من بابه. بفرشه ومتاعه وأونيه وسجاجيده.

واذا ما ذهب أسماعيل أفندى لأستلام داره وجد من يبرز له عقد موقع من شـــهود. بأنهم أشتروه ودفعوا ثمنه نقداً وعداً. وأنه اذا رغب فيه. يعرض ثمنا مناسبا. يغريهم على التنازل، فما كان من أسماعيل أفندى إلا أن يعود ويرفع شكوى أخرى للـــوالى. فأســـتدعاه الكتخدا وبادرة باللوم والعتاب واسماعيل أفندى يضرب كفا بكف ويصيح.

"حسبى الله ونعم الوكيل".

* * *

ولكن فراش الكتخدا لم يترك أسماعيل أفندى يستحلب المُرّ فقد أستدرجه وأفهمه بأن يكون "صاحب نظر" وعلى الفور قدم هدايا للكتخدا، تنوعت بين الأشياء العينيـــة والنقديـــة. وكذلك للفراش. فقام الكتخدا على الفور بأستدعاء كبير الطائفة التى بيـــده التعاقـــد وطلـــب الورقة واذا ما نظر فيها قام بتمزيقها صائحا "أن ما يقوم على باطل فهو باطل". وأخذ يوبخه متسائلا.

"أنت تعرف أنك تشترى أشياء لا يملكها من وقع لك. وما دفعته له لن يساوى شيئا فى ثمن البيت ثم أن صاحب البيت، يعمل موظفا فى الضربخانة وأنا حجزت شـــكواه حتـــى لاتصل إلى الوالى، فيقوم بإنزال العقاب ببعض الخارجين عن طاعته ليكسب ود أهل مـــصر هل تود أن أبلغ الوالى بما حدث فتقتل كأمثولة؟!.

على الفور تراجع الجند الأتراك وأعتذروا بأنه لم يكن يعلموا بأن للبيت صاحب لـــه نفوذ، وظنوا بأنه لأحد البكوات الهاربين إلى قبلى.

واذا ما خلص البيت لصاحبة، فقد أمر الكتخدا بأن يراضى (صـــاحب البيـــت) كبيـــر العسكر بتعويض مناسب. يترك تقديره لإسماعيل أفندى وكرمه!

سأل إسماعيل أفندى : يعنى كم؟.

قال الكتخدا وهو يهم بالوقوف حتى ينصرف الجميع من حضرته.

– أعطيه ألف قرش.. وشال كشمير.. ذلك نصف ماهو مبين فى العقد.

وعاد أسماعي أفندى إلى ضيقه وحنقه وسخطه. يردد " حسبى الله ونعم الوكيل"

ولم يكن أمامه إلا أن يدفع ثانية. واذا ما حسب ما أنفقه رأى أنه لو أشترى بيتا آخر.. لكان ذلك أفضل.

* * *

(٣)

معانـــاة محمد على
مع المماليك ومع قواته من
الأرنـــاؤوط والـــدلاة

ظل محمد على فى مناهدة مع "البكوات "المماليك" زمع قوته من الأرناؤوط والدلاة.. وزملاء يكنون له الحقد والحسد.. وكان يريد أن يفرغ من المماليك أولا.

فأخذ يناديهم بالصلح.. وهم يمتنعون ويسيطرون على وجه قبلى، و قد تناهى للباشا أنهم (متخاصمون هناك) وتجزأوا إلى جماعات. ولا يستقرون على رأى بل أن إبراهيم بيك الكبير(قد وضع أصابعه منهم فى الشق).

***

كان محمد على قد حاربهم بمن أستمالهم من الأمراء فلم يفلح فى القضاء عليهم. ولما وجد أنهم فى حالات كثيرة – لايرسلون غلال وجه قبلى إلى "مصر" راح يستميلهم بالصلح، ويمنيهم بأنه يصدد إعادة مالهم وتنصيبهم فى مراكزهم التى كانوا يحتلونها قبل مجيئ الحملة الفرنسية على مصر ولكن بشرط الدخول فى طاعته.

لكنهم كانوا يطلبون المشاركة!!.

***

وكان من إطاع الباشا وقبل الصلح قد أغدق عليه وأكرمه حتى يكون أمثولة. يغرى بها الآخرين بقبول العمل معه.

ومن أوائل الأمراء الكبار – الذين فضلوا الصلح مع الباشا هو"شاهين بيك". الذى حضر إلى بر الجيزة مع أعوانه وغلمانه ومماليكه– ضار بتخديرات إبراهيم بيك الكبير، وقافزا عى ما أتفقوا عليه "بأن يكون التفاوض مع مراسيل الباشا. جماعة". وأن عودة البكوات تكون جماعية، لضمان الحصول على كامل "مناصبهم والتزاماتهم ومخصصاتهم" فلا يستهين بهم الباشا ويغدر وأن من العيب أن يحاربهم بالمماليك أنفسهم؟!.

***

الباشا أمر بأن يستقبل شاهين بيك فى أحد قصور الجيزة الفخمة، وأن يضرب لمقدمة مدافع كثيرة فقد خرج عن طوع الآخرين. وأن يكون أستقباله شعبيا وعسكريا. حتى يعلم القاصى والدانى – أن مفاوضات الصلح الشاقة مع " أمراء المماليك" أتت بثمارها وأستمالت قطاعا منهم.

***

وبايعاز من الباشا. قام" على جربجى" الجيزاوى بعمل وليمة كبيرة لشاهين بيك ومن معه. "وفرض مصروف الوليمة على أهل الجيزة". وفى أثناء حفل الأستقبال أعلن الباشا بأنه أنعم على شاهين بيك باقليم الفيوم بتمامه التزاما وكشوفية. وأطلق يده فى الأقليم حرة التصرف!.

ولم يكتف بذلك، فقد عاد وأعلن ثانية بأنه ينعم عى شاهين بيك بثلاثين بلدة من إقليم البهنسا مع كشوفيتها. وعاد ثالثا وأنعم عليه بعشرة بلاد من بلاد الجيزة، ينتقيها ويختار ما يعجبه منها، مع كشوفية هذه البلاد (أى حاكما لها).

***

وفى نفس الوقت الباشا جعل الكتاب يكتبون الأوراق ويختمونها بخاتمه. ثم كتب له تقاسيط ديوانية. وأسندر إليه "كشوفية البحيرة" بتمامها وحتى حدود الأسكندرية. وقدم الكتبة لشاهين بيك مرسومات بتلك الإنعامات. بعد أن أزاعوا تفاصيلها على الجميع. لتصل تلك الإنعامات المغالى فيها إلى – الأمراء المماليك المتكرنكين فى وجه قبلى. وقد أصابتهم الدهشة، وخاصة من يتشكك فى نوايا محمد على.. ومن تردد فى العودة بات يخشى أن تذهب الإنعامات جميعها لغيره، واذا ما عاد لايجد شيئا لنفسه (إذ كان المماليك منقسمون إلى أربعة أقسام) متنافسة وكثرة اللغط والشجار بين الأفراد فى الصعيد، ولكن الرأى الغالب عند "جماعة إبراهيم بيك الكبير". الألفية" أن الباشا لايؤمن جانبه. ولابد من الأحتفاظ بقوتهم القتالية كاملة، حتى لايغدر بهم!.

***

كانت تلك الإنعامات التى آلت لشاهين بيك قد جرت فى أوائل ديسمبر عـــام١٨٠٧ – وقبل منتصف نفس الشهر وصل من الصعيد أربعة من صناجق الألفية. وهم أحمـــد بيـــك، ونعمان بيك. وحسين بيك. ومراد بيك الصغير. وكل بيك مصحوب بمن معـــه مـــن مماليـــك وغلمان أعوان..

هذه المره لم ينزل لهم الباشا كما فعل مع شاهين بيك. كان الباشـــا ينتظـــرهم فـــى القلعة. جالساً فى صدر ديوانه. وأمر لهم بالصعود إلى القلعة، فصعدوا فى موكـــب شـــعبى. عسكر الباشا يتقدمونهم ويتأخرون عنهم. أستقبلهم الباشا مرحبا. وأستـــضافهم واكـــرمهم وخلع عليهم الفراوى الناعمة وقلدهم سيوفا ذهبية. وقدم لهم التقادم وما يعينهم على الحياة فى رغد بالقاهرة. ونزل قائد قطاع من جيش محمد على، ونزل الصناجق الألفية مـــن عنـــد الباشا، ليقابلواحسن باشا(قائد فى جند محمد على) فسلموا عليه. وخلع علـــيهم خلعـــاً. ثـــم ذهبوا إلى بيت صالح أغا "السلحدار" ويقال عنه "صالح قوج" وهو قريب الباشا يقود جزء من جيشه" فأقاموا عنده، ثم ذهبوا إلى البيوت التى خصصت لهم وأستضافتهم. فباتوا فيها. وتوجهوا فى الصباح الباكر إلى الجيزة للأنضمام إلى موكب شاهين بيك!

***

موكب شاهين بيك عدى إلى البر الشرقى بطائفة من الكشاف والمماليك والهـــوارة. والناس على الصفين تحييه وتبارك الصلح بين الباشا والمماليك. وكـــان بـــصحبة موكـــب شاهين بيك طائفة من العسكر الدلاة. يرتدون طراطيرهم ويتـــسلحون بالبـــارود والـــسيوف والخناجر. ساروا أمام الموكب. وخلفهم الذين كانوا يطبلون ويزمرون. وبعدهم كانت طائفة من أعراب الهوارة فى ملابسهم البدوية وسيوفهم المعلقة فى جنوبهم، ثم الكشاف المماليك. وجماعة السيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والكبار من أهل البلد. يحيطون بـــشاهين بيـــك وبجانبه إبراهيم بيك الدفتر دار (ابن الباشا) الكبير. وابن الباشـــا الثـــانى "طوســـون بيـــك" وخلفهم طوائف من الأتباع والخدم. وجماعة النقاقير والزمامير والأهـــالى يحيطـــون بـــذلك الموكب الذى سار ناحية جهة القرافة وجميعهم رأوا ضريح الأمام الشافعى تبركا، ثم ركبـــوا ومشى الجميع إلى القلعة، وطلعوا من باب العزب" إلى سراية الديوان. وقد انفصل المـــشايخ والفقهاء ونزلوا إلى درهم بعد أن قابلوا الباشا وسلموا على شاهين بيك وخلع الباشا علـــى شاهين بيك والصناجق الأربعة. فراوى سمور وثمينة. وخص شاهين بيك بالأصـــيل منهـــا. وقدم لهم الباشا خيولا بسروجها. ودعى أبن الباشا (إبـــراهيم بيـــك الـــدفتر ادار) الأمـــراء المماليك ليأكلوا فى بيته بالأزبكية فأذن له والده الباشا بأن يصحبهم عنده. ثم ركـــب ابـــن الباشا إبراهيم بصحبة الأمراء ونزلوا من القلعة فى حرسهم. وأنعطفوا جميعا عنـــد "حـــسن باشا" فقابلهم وبش فى وجوههم. وقدم لهم خيولا من عنده. وركب حسن باشـــا بـــصحبتهم وذاهبوا جميعا عند طاهر باشا "ابن أخت الباشا محمد على" فسلموا عليه وقدم لهم الهـــدايا والتقادم.ثم أكلوا وشربوا ودخنوا فى ضيافة إبراهيم بيك الدفتردار. وبعدها ذهب الـــصناجق إلى بيوتهم، بينما ذهب شاهين بيك إلى الجيزة. وأستقر شاهين بيك فى مخيمـــه بـــشرامنت حسب طلبه حتى تتم عمارة القصر الذى خصص له..(ومنذ ذلك اليوم المشهود بـــدأ توافـــد أمراء الممايك على (مصر) والطلوع إلى الباشا فى القلعة. والنزول إلى حسن باشا. وطـــاهر باشا وإبراهيم بيك الدفترادر. ويتم الأنعام عليهم وتدبير مساكن لهم وتشهيل أمورهم!!

***

واذا كان شاهين بيك ومن يعاونه قد أستقر فى مخيمة بشرامنت فأن الألفيـــة مـــن الأمراء الذى توافدوا. ونصبوا خيامهم فى الجيزة، لكن فى اناحية البحرية منها الناحية!

وفى النصف الثانى من شهر ديسمبر ١٨٠٧ م أقيمت وليمة كبيرة. وذلك لعقد قران أحمد بيك الألفى على عديلة هانم بنت إبراهيم اكبير – الذى لم يأت إلى "مصر" وبقى هنـــاك فى الصعيد. متعللاً بأنه سيأتى فى القريب العاجل، وموحيا للباشا محمد على بأنـــه الرجـــل

الذى يجب أن يعتمد عليه فى وجه قبلى، يود لم أنه نصبه هناك وأعطاه العطايا، وعوضه عما خسره فى حرب الفرنسيس..
وهو مقيم آمن فى الصعيد!
"إذ كان إبراهيم بيك الكبير غير مطمئن لنوايا الباشا ويريد أن يتأكد من صدق وعوده".
وكان وكيل العروس عديلة هانم فى عقد الزواج هو شيخ السادات، بينما كان محمد "كتخدا" وكيلا عن أحمد بيك الألفى. ودفع أحمد بيك صداقا قدمه له الباشا وقدره ثمانية آلاف ريال. وأقيم فرح كبير، وعقب ذلك الفرح. أتفقوا على أن يرسلوا نعمان بيك ومحمد كتخدا. وعلى كاشف الصابونجى.. إلى وجه قبلى لإزالة ما علق فى نفس إبراهيم بيك الكبير من شكواك. وإتمام الصلح معه – مع ذكر ما قدمه الباشا لأمراء المماليك العائدين ولابنه إبراهيم بيك الكبير. وأن الباشا يحافظ على أولاد إبراهيم بيك الكبير وحريمه. بل يعمل على ستر بناته بالزواج!!
وفى تلك الأيام أرادوا إجراء عقد قران زينب هانم، ابنه إبراهيم بيك الكبير الأخرى. على نعمان بيك. ولكن زينب هانم لم ترغب فى الزواج من نعمان بيك وقالت :
– لا يكون ذلك إلا بحضور أبى. وإذنه. واذا ما سافر نعمان بيك إلى الصعيد موفدا من الباشا، فليطلبنى من أبى ويأتى منه برسالة الموافقة الصريحة!
فنزل الجميع إلى رأيها بعد إلحاح قليل، يحاولون أقناعها بأنهم فى مكانة الوالد، ومدحوا لها فى نعمان بيك لكن زينب هانم تمسكت بما تراه ولم تكن ملهوفة على الزواج.
وأراد شاهين بيك أن يعقد لنفسه على زوجة حسين بيك "المقتول" والمعروف بالوشاش. وكان خداشا شاهين بيك (زميلا) والعروس هى ابنة المرحوم الصفتى من كبارالتجار فأستأذن الباشا فى ذلك.. لكن الباشا قربه منه وأسر إليه فى أذنه – بأنه يرغب فى مصاهرته وتقريبه منه وطمئن وضحك وقال: حتى يكون زيتنا فى ديقيقنا ياشاهين بيك "أبنتى واصلة عما قريب من قولة. أرسلت فى حضورها، مع بقية أهلى وزوجتى فإن تأخر حضورها جهزت لك "تركية" من السرارى التى عندى" وزوجتك إياها.
ولما كان شاهين بيك لديه عدد من الجوارى، فقد وافق على رأى الباشا بأن ينتظر، وسرة أن الباشا يسعى لصهره فى عائلتة وذلك أسعده كثيرا. فمن العادة أن الأتراك لا يتزوجون إلا الأتراك حتى لو كان ذلك التركى فقيرا!
وكان الباشا قد جعل شاهين بيك. يأتيه كل يوم ولايتغيب عنه. فقد أستدعاه من الجيزة ليطلع إلى القلعة وذهب به إلى مضرب النشاب هناك. وعمل معه ميدانا ومبارة. ترامحوا بالخيل. وتسابقوا ولعبوا بالرماح والسيوف، فأثبت الباشا لشاهين بيك، أنه لم يزل فارسا من الطراز الأول!
وأستمر شاهين بيك فى ضيافة الباشا. يتحادثان أحيانا ومحمد على يسأل عن الأمراء "المصرية" وأحوالهم. ومدى ما بينهم من أختلافات، ومن معه ومن عليه. وشاهين بيك لصدقه القول. وكان الحوار بينهما مستمراً أثناء تناولهم الطعام والشراب
حتى إذ أوغل المساء يطلب الباشا من شاهين بيك أن يبيت فى القلعة. لكن شاهين بيك كان دائما يتحلل بعلة وأن أعمال كثيرة تنتظره فى مخيمة، تتطلب حضوره وينصرف عائد إلى شبرامنت.

***

<u>فى ٢٤ ديسمبر ١٨٠٧ م</u>

وصل (قابجى) من اسلامبول ومعه مرسومات عديدة أستقبلوه، وصعدوا به إلى القلعة لمقابلة الباشا. فأجتمع فى ديوان الباشا. جماعة من الكبار، من أهله ومن قواد

عسكره. والمشايخ والأمراء المصريين (المماليك) فى مقدمتهم شاهين بيـك. وتـم قـراءة المرسومات.

كان المرسوم الأول : التقرير لمحمد على باشا على ولاية مصر، وهـو مرسـوم يتكرر دائما.

المرسوم الثانى: يخص الدفتردارية فى الولاية. ويقصد إبراهيم بيك – ابن محمد على – اذ يرسل إليه "الباب العالى" خلعة وسيفاً مقراً له بالوظيفة.

والمرسوم الثالث: كان يشمل العفو عن جميع العسكر جـزاء أخـراجهم الأنجليـز مـن ثغرالأسكندرية – والواقع أن عسكر محمد على لم يشتركوا فى تلك المعارك التى قـام بهـا الأهالى فى رشيد بالذات عندما تغلبوا على "فريزر" حتى ألجأوه إلى الأسكندرية مهلهلا.

المرسوم الرابع : "وهو الأهم يوصى ضرورة التشهيل وسفر قـوة مـن مـصر لمحاربـة الخوارج بالحجاز. والقضاء على "الحركة الوهابية" التى تمادت هناك وأستولت على كنـوز محفوظة بالمسجدين. المسجد الحرام و السجد النبوى وأسـتخلاص الحـرمين. والوصـية بإغاثة الرعية والتجار هناك، الذين يستغيثون بالسطان ويتضررون!

***

وكان بصحبة "القابجى" خلع وشيلنجات وسيوف. واذا ما تمت المراسيم بـديردوان القلعة، ضربوا المدافع.. وتم تسليم الخلع والسيوف إلى محمد على باشا.

***

وفى اليوم التالى. تم تجهيز إبراهيم بيك الدفتردار بقوة تسافر على طريق القليوبية. وبصحبته طائفة من مباشرى الأقباط والمحاسبين والمساحين. وهم جرجس الطوبل هو كبير من كباراء الأقباط. وأفندية من الروزنامة. وعدد من الكتبة المسيحيين والمـسلمين وذلـك للكشف على الأطيان التى رويت من ماء النيل. والشراقى فأنزلوا بالقرى التى يمرون عليها النوازل من الكلف وحق الطريق والفرضة– وقرروا على كل فـدان رواه النيـل أربعمائـة وخمسين نصف فضة. تقبض فى الحال للديوان. وذلك خلاف ما للملتزم وضريبة "المـضاف وضريبة "البرانى" وحق الطريق والكلفة المتكررة على كل قرية، تأخذ منها كاملـة، وكـأن القوة جات خيصصا لتلك القرية. ممـا جعـل كلفـة الطريـق تـساوى نـصف الـضريبة المقررة...والدفع فى الحال، أو الجرسة والبهدلة والحبس ثم الأستيلاء عنوة على مـا فـى حوزة الفلاحين من المواشى والطيور والغلال. لتسديد المطلوب. أولا بأول والـسبب غيـر المعلن– هو التجهيز لحملة الحجاز التى يريد محمد على أن يثبت فيها ذاته عنـد الـسلطان ويحتاج لكثير من الأموال لتجهيزها.

***

وقبل أنقضاء شهر ديسمبر ١٨٠٧ م فرضوا علـى مـساتير النـاس فـى مـصر والوجهين، سلف بعدد من الأكياس محدودة – على أن يحسب لهم ما يؤخذه منهم من أصـل ما يتقرر على حصصهم من المغارم فى المستقبل. ويعطـى مـن يـدفع إيـصالا. وعينـو العساكرلطلب هذه السلف وكان للعساكر حق الطريق والعلوفة. يأخذونها مقدرة حتى لو لـم يدفع المستور.

كان بعضهم يدفع حق الطريق ويؤجل دفع المطلوب، فتهرب العديد من المـساتير، وأخلوا أنفسهم من أكياس المال. والتجأ الكثير منهم إلى ذوى الجاه للشفاعة.ولازموا أعتاب المشايخ حتى شفعوا فيهم وخففوا عنهم المطالبات.!!

<u>١٣ شعبان (١٦ أكتوبر ١٨٠٧)</u>

وفى ذلك اليوم، عمر جديد كتب للباشا محمد على إذا أن الباشا مر فى ناحية "سويقة العزى" سائرا إلى ناحية بيت بلغيا. وكان هناك من يترصده فى "الكتاب" الذى يقع فوق السبيل. والذى يكون مستقره بين الطريقين. تجاه من يأتى من تلك الناحية، فطلع إلى ذلك (الكتاب) شخصان من العسكر الأرناؤوط، وهم الذين شاهدوا الباشا فقيرا وجاء معهم فى جماعتهم غير النظامية، وماهى إلا بضعة أعوام حتى أصبح باشا مصر. ولعل جماعة من العسكر الأرناؤوط بيتوهاللباشا وحاولوا التخلص منه والقفز على دكة الولاية بدلا منه فقد قرب أهله وألاضيشه وتغافل عن "الزملاء" الذين رفعوه. وقد حبس عنهم العطايا والمزايا وراح يوقع عليهم الضرائب. حتى عندما كان "يعفى الشيوخ والفقهاء ولم يكن يعفيهم.. فتعبأت نفوسهم بالحقد عليه

وحينما أتى الباشا وصار مقابلا لذلك المكتب. ترصده الشخصان بغدراتين وأطلقا البرودتين فى أتجاهه. فأصابت إحدى الرصاصتين فرس من الفرسان الملازمين حول الباشا فسقط. وأنخفض الباشا وسارع بالنزول عن جواده. وتوارى خلف أحد المصاطب فى حانوت عطار قريب. وأمر الخدم والحرس بأحضار الكامنين بذلك المكتب. فطلعوا إليهما وقبضوا عليهما. ثم حضر كبيرهم من دار قريبة من ذلك المكان. واعتذر إلى الباشا بأن العسكرين مجنونان وسكرنان. وشهد على ذلك عدد من زملائها، وإلا كيف يخطئانه بغدارتين وهو على مسافة قريبة منهما. "والحمد لله على نجاتك". فأمر بأخراجهما من مصر وتسفيرهما فى الحال إلى بلادهما. وركب الباشا وذهب إلى داره وهو فى غاية الأنزعاج وجسمه كله يختلج!

***

وفى ذلك المساء أجتمع عسكر الأرناؤوط والترك فى بيت محمد على باشا – قطن الباشا بأنهم جاءوا لتهنئته بالنجاة. ولكنهم كانوا يطلبون علائفهم والمتأخرات من مخصصاتهم فى شيئ من الحدة والغضب، فوعدهم بالدفع. فقالوا :

– "لانصبر بعد هذه الساعة"

وكأنهم رتبوا له ترتيب الضرب عليه بالبارود ثم مطالبته بالمطالب التى تتضمن فى حناياها – بأنهم قادرين على التخلص منه بسهولة!

وقام حرس الباشا وخدمه بصرف المطالبين. لكنهم تجمهروا خارج بيت الباشا فى الأزبكية وضربوا بنادق كثيره فى الهواء. ولم يزالوا واقفين يصغون وسة وصياح وفوضى. حتى أرتجت البلد. وتوقع الجميع أن حرباً ستندلع بين قطاعين من الأرناؤوط قطاع مع الباشا وقطاع عليه.

لذلك سارع السيد عمر مكرم بأرسال المراسيل إلى أهل الغورية والعقادين والأسواق القريبة. بأمرهم برفع بضاعتهم من الحوانيت تحسبا لما سيحدث.ففعلوا وأغلقوها خاوية.

***

فلما أوغل المساء. وصل لبيت الباشا طائفة من الدلاة. وضربوا أيضا بنادق. فما كان من حرس الباشا إلاأن يضرب عليهم فى المليان. فسقط منهم أربعة قتلى. وأنجرح عدداً منهم. إذ أن عسكر الباشا يضربون البندق من الطيقان ويتمكنون من جمهرة العسكر الهاجئين والواقعين فى العراء!

تدخل الكبار منهم بالصياح بأن يكف الجميع عن المقاتلة، وبات الناس فى تلك الليلة الليلاء فى رعب. خصوصا بنواحى الأزهر. وأغلقوا البوبات، وسهر العسكر بالأسلحة. ولم تفتح الأبواب إلا بعد طلوع الشمس!

***

٢٤ شعبان (٢٧ أكتوبر ١٨٠٧ م)

أصبح الصبح والحال على ما هو عليه من الأضطراب. فالدلاة ساءهم مقتـل أربعـة منهم. بينما الثائرين فى البداية هم الأرناؤوط ولم يقتل منهم أحد. وقد سارع وقـام الباشـا بنقل أمتعته الثمينة من بيت الأزبكية إلى القلعة، وأستمر فى نقل الأمتعة لليوم الثانى.

ثم طلع إلى القلعة وشيعه حسن باشا حتى أبوابها ورجع إلـى داره. فقـد تبـين أن هناك مؤامرة تحاك خيوطها فى بيت الأزبكية، ومن العسكر الذين فى داره. ولولا أن أحـدهم كان وفيا للباشا ووالس عليهم لنفذوا فيه خطتهم وهو أن يقتلوه بحجة أن رصاصة طائـشة أستقرت فى رأسه ولا يدرى أحد من أين أتت. وأكتفى الباشا بأن عزل نفسه عن عـسكره. وأمر بأن يشهل الخدم نقله ونقل أمتعته وأولاده وزوجته إلى القلعة.

***

وكان أول شيئ نقل إلى القلعة تحت حراسة مشدده هى الخزينة المزحومة بالأموال. ثم الخيول والأسلحة. والأمتعة والسروج. وصناديق الملابس والسيوف والهدايا القيمة واذا ما خلا البيت من كل ما هو ثمين. ودخله العسكر غاضبين بغرض الأقامة فيه. أشـيع بـأن العسكر نهبوا بيت الباشا وذاد اللغط والأضطراب. ولم يعلم أحد حقيقة الحال حتى ولا كبـار العسكر. وحدثت من العسكر تعديات فى الأسواق. كسروا أبواب الدكاكين كما توقـع الـسيد عمرمكرم النقيب. فلم يعثروا على شئ له قيمة. وأنقسم العسكر. الأرناؤوط إلـى فـريقين. فرقة تميل إلى الباشا، وفرقة تميل إلى المتآمرين. والدلاه يميلون إلى المتآمرين ويكرهـون الأرناؤوط. ومن قتل، قتل من الدلاه. والذى منع قيام حرب بينهم أن كبـارهم قـدروا لهـم الموقف. فهم جميعا يختلطون بالأهالى فى السكن ويعتمدون فى معيشتهم على الأهالى. وقد ينتهز الأهالى الفرصة وخاصة الشيوخ فى غضب "وينقلبون عليهم جميعا. لذلك يكون مـن الأفضل للعسكر "فض مشاكلهم مع الوالى" وعدم التآمر على بنى جنسهم!

***

فى ٢٨ شعبان (٣١ أكتوبر ١٩٠٧ م)

طلع طائفة من المشايخ إلى القلعة. وتكلموا وتشاوروا مع الباشا فى تـسكين الحـال بأى وجه كان. وأن يصرف الباشا جزاء من العلوفة والمخصصات ونصحوه أن يعمل علـى أخراج العسكر من المساكن والأسواق.

فأشار الباشا بأن يسعى المشايخ مساعيهم وكان شغل المشايخ ينحصر فـى رفـع المظالم عن الأهالى، ولما أعطى لهم الباشا هذا الأمر تطوع المشايخ إلى رفع المظالم عـن الأرناؤوط والترك "سبحان الله" والباشا يستدرج المشايخ إلى (فرضة) جديدة على الأهـالى. وغرامات على القرى والمدن ويقول وهو يقلب يديه.

– أديكو شايفين الحال أنا لاأستطيع أرضاء عسكرى وهم عدتى فى مواجهة الأخطار. وأنتم زعلانين أنى أحصل الفرضة منكم.

وكان كل ما يهم المشايخ. أن شهر رمضان الكريم داخل. وضرورة أن تهدأ الأحوال حتى تزدان الحارات والأسواق بالبنادر والمصابيح والتعاليق وتصرح بها الزمـامير وتـدق الطبول. والعادة أن يخرج الموكب من بيت القاضى. لكن فى هذا العام بطل ذلك وأكتفوا عند حلول شهر رمضان بضرب المدافع من القلعة، وأعقب ذلك ضرب البندق من الطيقان ومـن أسطح المنازل فى أبتهاج منفعل والشخص إذا قابل جاره وقال له كل عام وأنت بخير.

– يرد : أين هو الخير ياأخى؟

الخميس ٤ رمضان (٥ نوفمبر١٨٠٧)

أنكشفت القضية وظهر لبَ الخلافات بين العسكر عن طلب مبلغ عشرة ألاف كـيس من الأهالى وأشرك الباشا معظم المشايخ فى ذلك الطلب الهام. على أمـل أن يجـدوا حـلا سريعا، حتى يدفع المتأخرات للعسكر. والباشا فى الواقع مهموم بالحملـة التـى يجـب أن ينجهزها ويدفع بها إلى الحجاز".

وأنعقدت سلسلة من الأجتماعات والمداولات تتلقى الأقتراحات والمشورة. تارة تعقد جمعية فى بيت السيد عمر مكرم، وتارة فى أماكن أخرى. مثل بيت السيد المحروقى. حتـى تم ترتيب عمليات التوزيع على الفئات. والمهن. والقرى. والمدن. وتم توزيع جانـب علـى دائرة الباشا. وجانب على المشايخ الملتزمين. نظير المسموح لهم فى فرض حصص أكلوها من قبل – وكان على المشايخ ألفى كيس، وزعت على القراريط. على كل قيراط ثلاثة آلاف فضة. وذلك على سبيل القرض، لأجل أن ترد أو تحسب لهم فى الكشوفات من رفع المظـالم ومال الجهاد أوغيره. وعليهم أن يأخذوها من الفلاحين التابعين لهم (!) وفرض على أرباب الحرف والمهن الأخرى فروضات. وكان أعلاها على أهل الغورية ووكالة الصابون.ووكالـة التجار الجائلين!.

وأستقر ديوان الطلب ببيت "ابن الصاوى" ليجمع فيه ما يتعلـق بالفقهـاء.وتكفـل اسماعيل الطوبجى بالمطلوب من طائفة الأتراك وأهل خان الخليلى. والمرجع الأساسى بأمر الباشا فى الطلب والدفع والرفع وتقدير الأمور سيكون السيد عمر مكرم النقيب!!

"الرجل وجد نفسه متورطا – لكن ماذا سيفعل أمام التيار العام".

***

ولكن أصحاب الحرف التى لاتأتى بالطعام لصاحبها تضرروا وتصايحوا بالـشكوى.. كالصرماتية وأمثالهم والتجأوا إلى الجامع الأزهر يستغيثون – وفى ظنهم أن المشايخ لهـم حماسة زمان. سيتقدمونهم معارضون للباشا ويظهرون له أحوالهم، فينصفهم. لكن الزمـان كان قد تبدل. فقد كشف الباشا تكالب الشيوخ وأفقدهم عزوتهم. وحتى وهم يعينونـه علـى أستنزاف الناس. كان حذرا منهم. – فأقام أصحاب الحرف التافهة أياما وليالى من رمـضان الكريم يتغيثون بالأزهر، ولا مجيب والساخرين كانوا يقولون أن الصرماتية بدأوا رمـضان بالعشرة الأواخر فأعتكفوا بالجامع! وكان على كل شخص أن يدبرما عليه حتى لو لم يجـد طعام سحوره!

***

لقد دهى الناس فى الشهر الكريم بتلك المطلوبات. فيكون الأنسان نائما فـى بيتـه ومتفكراً فى قوت عاليه، فإذا بالعسكر يأتون إليه بالمطلوبات "الدفع أو الأهانـة".الـدفع أو حجز شئ ثمين من أثاث بيته" ويضطر المُطالب أن يدفع بداية، كـراء الطريـق للمعينـين بالجباية. ثم يطلب الإرجاء يوم أو نصف يوم لتدبير ما ليه. فيحصل المعينون علـى كـراء الطريق مرتين وثلاث مرات. ولا يتنازلوا عن قرش واحد من المطلوب!.

***

<u>١٠ فبراير ١٨٠٨ م</u>

ورد الخبر إلى ديوان الباشا فى القلعة. بأن سليمان بيك الألفى، لمـا وصـل إلـى "المنيا" ونزل فيها. خرج إليه ياسين بيك بمجموعة من عساكره وعربانه فوقع بين الفريقين واقعة عظيمة. وأسفرت الواقعة عن إنهزام ياسين بيك. ولكنه تمكن من أن يـولى الأدبـار هاربا– فتتبعه سليمان بيك فى قلة، وعدى الخندق خلفه دون حذر من ألاعيب ياسين بيـك، فأصيب سليمان بيك فى كمين نصب له بداخل الخندق. ووقع ميتا مات بعد أن نهـب جميـع

متاع ياسين بيك من جمال وأثقال وشتت جموعه ورفع هيمته فى المنيا. ثم شتت عساكره وعربانه وما بقى منهم بداخل المنيا..

***

فلما ورد الخير إلى الباشا بمقتل سليمان بيك.. أغتم وتأسف على موته. وهو من "أمراء المماليك المصالحين الذين يحاولون إثبات الشجاعة والأخلاص له للباشا. فأقام الباشا عليه العزاء وعزى (زملاءه) فى الجيزة. وهم فى بيوتهم. وأبدى الكثير من الأسف.

وطفق الباشا يلوم الأمراء المماليك على تهورهم.

ويسأل: كيف يخاطر سليمان بيك بنفسه ويلقى بها فى داخل خندق؟ وذلك عمل متهور يقوم به متطوع من أتباعه.

وقال: أنا أرسلت أليه أحذره من ياسين بيك وخبثه. وأطلب منه أن ينتظر حتى أرسل إليه قوة آخرى من طرفى على رأسها "بونابرته الخازندار" وبيده مراسيم يطلع عليها ياسين بيك. اذا أطاع كان بها. واذا لم يفعل يمكن محاربته معا وتتقدم عسكر الأتراك لمحاصرته لمعرفتهم على الأبنية.

وقال: "ينبغى على كبير الجيش التأخر عن عسكر المقدمة. فأن الكبير عبارة عن الرأس المدبرة وبمصابه يفقد الجسم عمله.

"وأندهش الباشا" أن يتهور أمير ويلقى بنفسه إلى التهلكة وأعلن الباشا بأنه يتكلف بأولاده وزوجات سليمان بيك. وقام الباشا بتقديم التعازى إلى شاهين بيك والتحمس منه أن يختارمن "خداشينه" الزملاء من يقلده أمارة سليمان بيك المقتول. فتشاور شاهين بيك مع من معه من أمراء المماليك. فلم يرضى أحد من الكبار بأن يتقلد المنيا ولكن شخص منهم ليس كبيرا أسمه (يحيى) وافق، فأرسلوه إلى الباشا فى القلعة. خلع عليه وأمره بالسفر إلى المنيا، فأخذ فى قضاء أشغاله الخاصة، وعدى إلى الجيزة متوجها إلى الصعيد.

***

وكان "بونابرته الخازندار" أحد قواد الباشا وقريبه قد رحل إلى المنيا بقوات من الترك الأرناؤوط والدلاة. ولكن وصوله جاء بعد مقتل سليمان بيك. وكان أن حاصر ياسين بيك ومن معه. وأرسل إليه يستدعيه إلى طاعة الباشا وأطلعه على المكاتبات والمرسيم التى بيده وبختم الباشا. يحض الحاضرين والغائبين من أمراء المماليك على الدخول فى طاعته وكانت أوامر الباشا لبونايرته الخازندار – أن ياسين بيك إذا أبى الدخول فى الطاعة يقوم عسكر الباشا وعسكر الأمراء المماليك. بمحاربته حتى يهزم، أما إذا هاود وسعى للصلح، فيأتى إلى مصر ويصعد إلى القلعة لمقابلة الباشا حتى ينعم عليه!

***

وبعد إلحاح، حضر ياسين بيك إلى الخازندار وأستوثق من أمان الباشا المكتوب. وأنفض عنه العربان المحصرون فى المنيا، وأستلم بونايرته الخازندار أقليم المنيا. فأقام بها. وأرتحل عنها إلى مصر.. يحمل للباشا ما حدث. وفى أعقابه حضر ياسين بيك بمن معه إلى تغربولاق. وركب فى نفس الصباح. وطلع إلى القلعة. فعوقه الباشا هناك، وأراد قتله. فالأمان المرسل إليه كان قد كتب قبل أن يقتل سليمان بيك. لكن "عمر بيك الأرناؤوطى وهو من زملاء محمد على الكبار" وصالح قوج، وغيرهما من – زملاء الباشا القدامى وأصحاب عزوة فى عسكره – تعصبوا لياسين بيك، ورأوا أن ذلك ليس لائقا ويترك أثراً فى نفوس بقية المماليك الذين يزعمون الصلح.

وكان الباشا قد رتب عسكره وجنده وأوقفهم عند الأبواب الداخلية والخارجية، وحضر فى الديوان عمر بيك وصالح قوج وتحادثا مع الباشا فى أمر ياسين بيك الذى حضر على ضوء الأمان الذى بيده والذى أعطاه له بونايرته الخازندار – وطلبوا منه أن يسمح له بأن يقيم فى (مصر). لكن الباشا كان ثائرا ورفض أن يقيم ياسين بيك فى مصر..

وقال- سأقتله الساعة- وأنظر أى شئ يكون" فلم يسع المتعصبين لياسين بيك إلا الأمتثال لرغبة الباشا. ومع أن الباشا كان قد قرر قتل ياسين بيك. أرضاءً لأمراء المماليك وخاطر شاهين بيك الذى تأثر بموت سليمان بيك. إلا أن الباشا عدل فجأة عن قتل ياسين بيك وأكتفى بأن قام بتوبيخه وإظهار بأن فى استطاعته القضاء عليه ولكنه عدل عن ذلك. ثم أنعم عليه بأربعين كيسا. وجعله يذهب إلى بولاق. ويسافر إلى دمياط، ومنها إلى قبرص!

واذا ما استدعى عمر بيك وصالح اغا. ظنوا بأن الباشا يريد أن يطلعهم على مقتل ياسين بيك كما رغب. لكنه فاجأهما بأنه أخذ بشفاعتهما فيه وأطلقه على أن يغادر البلاد ويخرج من زمامه!

فتبادل عمر بيك وصالح قوج النظرات ذات المعنى. اذ أن صالح قوج راهن عمر بيك الأرناؤوطى بأن الباشا لن يقتل ياسين بيك.. بينما عمر بيك رأى عكس ذلك وظن أنه يعرف طباع الباشا جيدا.. وأنه سيقتل ياسين بيك.

***

وبعد يوم واحد.. وردت الأوامر العليا مع "القابجي" بضرورة الأستعجال فى خروج العساكر التى تحت أمرة محمد على إلى الأراضى الحجازية. وتخليص البلاد من أيدى الوهابية. فعمل الباشا ديوانا جمع فيه ابنه إبراهيم الدفتردار، والمعلم غالى، والسيد عمر مكرم والمشايخ والأعيان من التجار. وقال لهم لايخفاكم، أن الحرمين أستولى عليهما الوهابيون ومشوا أحكامهم، بها وهى أحكام لاترضى عنها الدولة. وقد وردت علينا الأوامر السلطانية المرة بعد المرة للخروج إليهم ومجاريتهم وجلائهم وطردهم من الحرمين الشريفين"..

وقال :

- وذلك الأمر له أهميته، ونحن لاتغفل عن تلك الأهمية اذ يجب أن نحث العسكر طرفنا على التجهيز. ويجب علينا أمتلاك سفن النقل فى بحر القلزم. وذلك يتطلب على وجه السرعة أربعة وعشرين ألف كيس فاعملوا على تحصيلها بسرعة. فالوقت يدهمنا..

قال ذلك وغادر المجلس على أنه سيعود حالا ويريد أن يجد أستجابة وترتيب جاهز.

"فحصل أرتباك وأضطراب بين المجتمعين. وشاع ذلك فى الناس بعد أن تسرب الخبر إلى الأهالى خاصة فى أرباب المهن والتجار والمزارعين. وكان أقل تعليق قاله تاجر يشرف على الأفلاس.

"ما باقى عندنا إلا أن يبيعونا للنخاسين"..

***

<u>الأربعاء ١٥ يونيه ١٨٠٨ م</u>

ورد الخبر إلى "مصر" من وجه قبلى بأن شاهين بيك المرادى قد مات " يعرف شاهين – هذا –بشاهين باب اللوق – لأنه كان ساكنا هناك، وهو من مماليك مراد بيك واصله جرسكى – ولماأعتقه مراد بيك، أنعم عليه بكشوفية أقليم الغربية، ثم رجع إلى القاهرة. وأقام فيها متطلعا للإمارة الكبرى، ويرى بأنه أحق بها من غيره.

ولما رجع أمراء المماليك إلى – القاهرة – بعد قتل طاهر باشا. وكان الألفى غائبا ببلاد الأنجليز، تحالف شاهين بيك مع عثمان بيك البرديس، ووافقه على "كراهه" الألفى، وما هدف إليه من "أمارة بمساعدة الأنجليز" وأنه يعمل لصالحه بما لن توافق عليه الدولة العثمانية.

وكان شاهين بيك المرادى أحد القاتلين "لحسين بيك الوثاش" بالبر الغربى، ليلة خروجهم وتعديتهم لملاقاة الألفى، ثم خرج شاهين بيك المرادى من مصر مع أتباعه وعشيرته ولم يزل باقيا فى الصعيد مستحكما هناك مطالبا بالأمارة، بصفته الأحق بها بعد "مراد بيك الكبير" حتى مات.. فكان موته راحة للباشا، فهو عنيد وقوى مثل إبراهيم بيك

الكبير الذى مازال يلاوع الباشا ولايرضخ له. والباشا يعمل على أن لايصطدم به فى الوقت الحالى على الأقل".

فخلع الباشا على سليم بيك المحرمجي، ونصبه كبيرا ورئيسا المرادية عوضا شاهين بيك الذى مات والناس قدمت العزاء فى الجيزة إلى شاهين بيك الألفى المتحالف مع الباشا والذى انشغل باستقبال امين بيك الألفى والذى كان مسافراً مع الأنجليز بعد فشل حملتهم على الأسكندرية ورشيد – وكانوا قد جاءوا فى عام ١٨٠٧ بناء على رغبة المماليك الألفية وفشلوا، فلم يزل أمين بيك الألفى غائبا حتى بلغه صلح خشداشينه مع الباشا. وكيف أن الباشا ينعم على أمراء المماليك ويسرف فى الأنعامات. وبادر الباشا وأرسل لأمين بيك الألفى الخيول واللوازم ولملاوقاته.. بالأسكندرية. ورحب به عندما حضر إلى القلعة، وأوصى براحته وتسكينه. وحضر أمين بيك زوج شاهين بيك الألفى من "سرية" "أنتقتها زوجة الباشا ونظمتها وحضرتها بفرش له (سبعة مجالس) بقصر الجيزة. وجمعوا لذلك المنجدين. وتقيد الباشا بتجهيز العروس والشوار والأقمشة واللوازم حتى أن أمراء المماليك كانوا يتساءلون كيف سيطر شاهين بيك على الباشا. وأكل دماغه"!

وكذلك زوج الباشا نعمان بيك من "سرية" أخرى. وأسكنه ببيت المشهدى بدرب الدليل. بعد أن عمرت له الدار هناك. وتم فرشها من طرف الباشا أيضا. وكذلك وكذلك تزوج عمر بيك من جارية من جوارى الست نفيسة المرادية. جهزتها جهازاً نفيسا من مالها. وتزوج أيضا كاشف الكبير الألفى" بزوجة سيده الذى مات وحل محله فى بيته يربى له أولاده، ويملك كل ما كان يملكه

وذلك على عادة الكبار من الأمراء. يرثون بعضهم فى ترتيب يرتبونه لأنفسهم. فلا يتجاوز أحد من يكون أمامه..

وأمتدت المصالحة وأقيمت الأفراح و الليالى الملاح من مصر إلى الصعيد. إذ تم تقرير الصلح بين الباشا وبين الأمراء المماليك القبالى. وفيها قلد الباشا "مرزوق بيك" ابن إبراهيم بيك الكبير ولاية جرجا وأمارة الصعيد. وألبسه الخلعة بذلك، وشرط عليه عدم تعويق إرسال الغلال الأميرية، وعين الباشا ترنو إلى إرضاء إبراهيم بيك الكبير، وأستدرجة وعند ذلك أطمأنت النفوس، وسافر المتسببون التجار إلى الصعيد. وبدأ ظهور ما يأتى من الصعيد على عرصات التجار فى الأسواق بمصر ونواحيها.

***

فى الوقت الذى كان الباشا يصالح أمراء المماليك ويعطف عليهم ويمنحهم العطايا المتعددة. كان بنفس القدر ينقلب على كبار عسكره من الأرناؤوط والدلاة. إذ قطع مرتب كثير من الدلاة وأعتبرهم أغرابا ليس لهم مكان فى ولايته. كما أنه ضيق الخناق على من يحسدونه من الأرناؤوط الكبار ليغادروا مصر إلى بلادهم. وقد قام بعزل كبير الدلاة ويسمى "كردى بوالى" ويسكن فى بولاق وقلد فى مكانه "مصطفى بيك "وهو من أقاربه" وجعله كبير على الطائفة الدلاتية الباقين. وضم إليهم طائفة من عنده. ألبسهم الطراطير وجعلهم، فيهم ودمجهم معهم موزعين على كافة المجموعات. وكانوا فى الأصل عيونه وأذانه عند الدلاة والأرناؤوط – ليعلم أولا بأول فى ماذا يفكرون .. وماذا يريدون!

وأرغم "كردى بوالى" على أن يخرج من الولاية وبصحبته عدد كبير من الدلاة، ومن لايرغب فى تواجدهم من العسكر الترك. وكانوا يرسلون بالشفاعات للبقاء فى مصر، وقد تقطعت أسبابهم ببلادهم، لكن الباشا كان يعدد مصائبهم، ويتمسك بطردهم، ولا يعطى أذنه لأى أحد أن يقدم شفاعة لهم!

***

<u>**٣١ ديسمبر ١٨٠٨ م**</u>

نزل والى الشرطة، وأمامه المنادون" ينادون على ما يستقرضه الناس من العسكر بالربا والزيادة الفاحشة فى تلك القروض"

ونادى على أن يكون على كل كيس ستة عشرة قرشا فى كل شهر لاغير. والكيس عشرون ألف نصف فضة – وهو الكيس الرومى– وذلك بسبب ماأنكسر على المحتاجين المضطرين للسلف، من كثرة الربا ولضيق المعايش. وأنقطاع المكاسب. وغلوا الأسعار، وزيادة المكوس المفروضة والمبتدعة، فيضطر الشخص لكى يستر نفسه، ويجد ما ينفقه على أهله. أو على تجارته وسبوبته أن يستدين، فلا يجد من يعطيه من أهل البلد الذين يستخدمون الربا، فيستدين من "العسكر الأرناؤوط والدلاة". والترك، ويشترط العسكرى الذى يعتبر ذلك تشغيل لأمواله. بأن يحصل على خمسين قرشا فى عن كل شهر عن كيس وكان ما يدفع شهريا من عشرة قروش إلى خمسة عشر قرشا عند المغالاة.وتتم المكاتبات والمواثيق على ذلك. وإذا قصرت يد المديون عن الوفاء أضافوا الزيادة، على الأصل. فتركبت أنواع الربا. وبطول الزمن تفحش الزيادة ويتعذر سداد الدين. ويؤول كل ما يملكه المديون – بسعر بخس إلى المدين – الذى يستخد قوته وقوة زملائه فى تنفيذ ما وقع عليه المدين.

وجرى ذلك على كثير من مساتير الناس. فباعوا أملاكهم ومتاعهم وبيوتهم وحتى دوابهم وركائبهم. والبعض ضاق به الحال ولم يجد شيئا، فخرج هاربا. وترك أهله وعياله رهينة للعسكر الذين لايرحمون. وكثرت حوادث الشجار والتى تؤدى إلى القتل أحيانا. فذهب عدد كبير من المديونين إلى الباشا. وعرضوا عليه حالهم. وزيادة الربا على ما أستقرضوه فأمر الباشا بأن ينزل والى الشرطة إلى الأسواق ويحدد الزيادة فى الربا بستة عشر قرشا على الكيس وليس خمسينا – والباشا بذلك – جعل الحد الأدنى المطلوب يرتفع من عشرة قروش إلى ستة عشر قرشا لترضية عسكره.

وذلك أثار مشايخ الأزهر والفقهاء. فأن ما يحدث هو تفنين للربا الذى حرمه الله. وذلك يتم بلا أحتشام ولامبالاة. وأعتبر ذلك فى مصر من عجائب وغرائب الترك. أن لايفرقوا بين ما يستقرضه الناس. فليس كل مستقرض يتاجر بالأموال. ورأوا أن فى ذلك عيباً وأستحرما. فأبلغوا المشايخ الكبار بذلك – فوقع مشايخ البلد فى "حيص بيص".

فقد أعفاهم الباشا من دفع أية فرضة أو مكوس على متحصلاتهم، وجعل لهم عند الأهالى أموالا يتحصلونها أضعافا مضاعفة. بل أن الباشا بذلك تفنن فى أبتداع أنواع المتحصلات. ولم يعد المشايخ يتدخلون لوقف تلك الأحوال، وقد ظهر عليهم الثراء.. بينما الناس عامة تعانى معاناة شديدة فى معيشتها..

لم يدرك المشايخ وأرباب السجاجيد وولاة الأوقافات وأصحاب النقابات. أن الباشا بدأ حربه ضدهم. بأن رفعهم إلى فوق، فأنقطعت صلتهم بقوتهم التى تتمثل فى طاعة الجماهير لهم. عندما كانوا محل شفاعة ومساعدين فى رفع الظلم عن كاهل الأهالى. لا يخشون فى قول الحق لومة لائم، لاأحد "يكسر عينهم" والآن باتت عينهم مكسورة !

***

١١ يناير ١٨٠٩

غضب الباشا على "محو بيك الكبير"، الذى كان كاشفا بالبحيرة ونفاه إلى أبى قير، وأخذ منه أمواله، وأنعم ببيته – على أحد الألاضيش (التابعين) وهو حسين أغاشنن البيت بحارة عابدين بيت عليه القيمة، وما بالبيت من الخيل والجمال والجوار الحسان والخيام والمتاع.. ولم يجد "محو بيك الكبير" من يتشفع له ويعينه على أستعادة مكانته. والجميع يعرفون أن النفى إلى أبى قير أو الأسكندرية بدون منصب أو مخصصات يعنى "الموت".. وكأن الباشا يرسله إلى هناك ليبادر من يهمن على ابى قير، بالتخلص من محو بيك الكبير– أو غيره –بالخنق.

ويعلنون بأن المنفى مات... فيقوم الباشا نفسه بصرف أمر بأن يقام له عزاء فخم. ويشرف بنفسه على العزاء. ويسلم عليه الجميع على أنه المصاب!

٣ فبراير ١٨٠٩

خرجت عساكر كثيرة إلى البر الغربى بقصد الذهاب إلى الفيوم بصحبة شاهين بيك والألفية.. وذلك بسبب أحداث تحدث من "عرب أولاد على" بحجة اغارتهم على الفيوم. وهم الذين كانوا بالبحيرة.. وتركهم محو بيك الكبير يتكاثرون. وقيل أنه كان يتآمر معهم ضد الباشا وأمراء المماليك. فتقوى بهم. وسلحهم. وخالف سياسة القديمة المماليك- أو سياسة الباشا- بأن يتم اضعاف- العربان-أولا بأول..فهم يتكاثرون وعددهم بالألوف ويعتبرون أنفسهم أصحاب البلد الحقيقين.. ثم أنهم يتسلحون ويقاتلون.. عكس الفلاحين وفى ذلك خطر شديد يجب أن يلاحق دائما ولايترك ليستفحل.

***

اشتد الخلاف بين الزميلين القديمين. أحدهما محمد على وقد صار واليا على مصر وحمل لقب الباشا. والثانى هو "رجب أغا الأرناؤوطى" الذى عمل مع الباشا وأخلص له. حتى أن الباشا دفع به وبمن معه إلى أن يتظاهر بأنه غضب منه فيرحل وينضم إلى البكوات (المماليك) فى الصعيد.وهى خطة سرية مرسومة بيته وبين الباشا فيتقرب من الألفى وحلفاؤه ويقتلهم. ثم يعود ويحصل على مكافأة ضخمة لاتقل عن ألف كيس من المال. ومنصب كبير فى الولاية. ذلك كان الأتفاق بين محمد على و رجب أغا وقام رجب أغا بتنفيذ المطلوب منه بكل دقة. ادعى بأنه على خلاف مع الباشا محمد على وأرسل إلى الألفية فى الصعيد فرحبوا بأنضمامه إليهم. لكن الألفى جاء أجله فمات، والصلح بدأ يجرى بين محمد على والبكوات فى قبلى. فعاد رجب أغا إلى القاهرة. ولم يف محمد على بما أتفق عليه معه. وحجته فى ذلك أن الألفى بيك مات موتة ربنا دون جهد منه (!) وهنا تعمق الخلاف وأشتد بين الباشا الذى ثار ومار وهدد وتوعد، فأصدر الباشا إنذاراً إلى رجب أغا ومن معه بأن يرحل عن مصر. وقد قطع خرجه وأعطاه علوفته. فأمتنع رجب أغا عن الخروج خاوى اليدين..

وقال: أنا لى عند الباشا خمسمائة كيس من المال. مقابل أعمال عرضت حياتى للخطر. ولن أسافر عن مصر لا إذا قبضت مالى.

وفى الواقع رجب أغا لايريد مغادرة مصر الذى صار فيها الأرناؤوط أسيادا وأصحاب حيثيات. وهو يعرف محمد على حق المعرفة ويعتبر نفسه أكثر أصالة وتميز عائلى، فكيف يرضى بأن يكون لمحمد على تلك المكانة والأموال ويعود هو إلى بلده خائبا خالى الوفاض؟

وكان رجب أغا أثناء ثورته يصرخ (بعد أن كانوا يتحطبون فى بلادهم والجوع يفرى بطونهم ويتكسبون من الصنائع الدنيئة صاروا الآن باشاوات وأصحاب ولاية والله ما أنا مغادر مصر إلا وحقى فى يدى على داير باره").

ومحمد على كان يعرف عناد رجب أغا. يعرف أنه له أتباع يطيعونه ويخشى أن يحرض أحدهم على قتله. فكان لايواجهه. ويكتفى بأن يرسل إليه بالمراسيل فكان رجب أغا يسب محمد على وجدوده أمام المراسيل وبعضهم كان من الفقهاء والمشايخ. الذين أعفاهم محمد على من الضرائب والمغارم لفترة حتى تمكن من حكم البلد. ثم أنزل عليهم الغرامات أزواجا.وكانوا ينقلون ذلك السباب إلى مجالسهم بصورة الذى لايعجبهم أن يقع بين الترك خلافات من هذا النوع، وهم يقصدون خلاف ذلك – أن تنزل سمعة الباشا إلى الحضضين!

***

وعلى ضوء ذلك، تكرنك رجب أغا وجمع أتباعه بناحية سكنه. وكان يقيم ببيت حسن كتخدا الجربان بباب اللوق. فأرسل إليه الباشا قوة تحاربه وترغمه على الخروج من

مصر. فحاصره "حسن أغا" سرششمة بقوة من ناحية قنطرة باب الخرق (الأسم الحقيقي لباب الخلق) وحضر فى حصاره أيضا عدد كبير من الدلاة وكبرائهم، وتكرنكوا من جهة المدابغ. وعمل كل منهم متاريس من جهته. وتقدموا قليلا فى حصارهم حتى أقتربوا من مساكن الأرناؤوط المعاندين. وذلك فى أتجاه بيت البارودى، فأطلق عليهم رجب أغا كثير من البارود فلم يتجاسر أحد من قوة "الباشا" على المواجهة.وأسفر تدبيرهم بأن يدخلوا إليه من البيوت التى تحتجزهم عنه. فقد كان رجب وقواته مدفوسا فى جملة من البيوت المتلاصقة فى باب الخرق ويسيطر على الطريق الوحيد الذى يصل إليه. لذلك قام أتباع الباشا بنقب جدران البيوت والتقدم نحو موقع رجب أغا. والغرض من ذلك هو قتله وأن يسلم من معه بالأمر. فالمطلوب مغادرته البلاد وحده. لكنه صاحب عزوة ويرى "البلديات" أن عزوته تحرجهم ولا يستطيع أحد مخالفته. ولكن اذا قتل أنتقل ولاؤهم إلى الباشا وأنتهى الأمر.

لذلك راحوا ينقبون الجدران. ويصلون من بيت إلى بيت ويقتربون من بيت حسن كتخدا الجربان الذى يسكن فيه رجب أغا ويتمترس فيه بأعوانه.ومع ما يصيب أصحاب البيوت من ضرر النقب وهدم الجدران السميكة ومعظمهم خارج موضوع الخلافات بين الأرناؤوط وبعضهم، فقد كانوا مرغمين على السكوت. وقد نقبوا بيت الشيخ محمد سعد البكرى. ونفذوا منه إلى المنزل الذى بجواره. ثم منه إلى منزل أغا الشعراوى. ثم إلى بيت سيدى محمد وأخيه سيدى محمود. وهما مغربيان – ثم بيت أبو دفية الملاصق لسكن طائفة الأرناؤوط المتمردين وجماعة الباشا فى نقبهم ودخولهم البيوت وكشف أسرارها. أزعجوا سكانها بقبيح أفعالهم. وكثيرا من الأشياء بداخل البيوت طمع فيها العسكر. كما أنهم كانوا ينتشرون فى البيت أنتشار الجرد اذا ما دخلوه. فيهتكون ستر الحريم بصورة منكرة. اذ يدخلون إلى الغرف بحجة أنهم يعاينون بدون أستئذان. وينقبون من مساكن الحريم العليا فيهدمون الحوائط. ويدخلوم منها إلى محل حريم فى بيت آخر. وتصعد طائفة منهم إلى السطح تعاين مدى الأقتراب. ويطلقون رصاص بنادقهم فى حال مشيهم وصعودهم ونزلوهم فى صورة حيوانية فوضوية...

وتفاقمت الغرامات والمحاصرات. والرعب الذى أصاب الناس وذاد وقف الحال الذى بات يزيد كثيرا عن الخمسمائة كيس المطلوبة. والتى وعد الباشا بها صاحبه ليأخذها حتى أن السكان رغبوا فى جمع المال ودفعه من مالهم الخاص لينفض الأمر وتتوقف الحرب بين طائفة الأرناؤوط..

***

وقد حدث أنزعاج شديد للنساء والأطفال وهن يهربن إلى الحارات الآخرى. مثل حارة قواديس. ناحية حارة عابدين، بظاهر الدور المذكورة – والناس فى غاية الرعب. إذ أن حرب الأرناؤوط تقوم بينهم وهم فى حارات وبيوت تعج بسكانها من الأهالى الذى لا لهم فى الثور أو الطحين!

وطفقت العساكر تنهب الأمتعة والثياب والفرش فى البيوت وقد أنتهزوا فرصة الفوضى وأعتبروا أنفسهم فى دار حرب، وكل شئ مستباح. وكانوا يكسرون الصناديق. ويأخذون ما فيها ويأكلون ما فى القدور من الأطعمة وهم فى نهار رمضان دون حياء، وذلك جهاراً ودون أحتشام.وقد خربوا بيت أبو دفية تماما ونهبوه. وقد أصيب محمد أفندى ابودفية برصاصة أطلقها بعضهم فذت فى كتفه. وكذلك فعل العسكر الذين أتوا من ناحية المدابغ بالبيوت الآمنه. وقد أستمرت تلك الحالة المزعجة لثلاثة أيام من رمضان وبعدها حضر "عمر بيك الأرناؤوطى وهو صديق حميم للاثنين المتخاصمين وكان يسكن فى بولاق وأجتمع بكبار قوة محمد على. وأجتمع برجب أغا. وكف إطلاق الرصاص بينهما. وصالح البلديات على بعضهما. وخرج رجب أغا معه بقوته ليغادر مصر، وقد تسلم أمواله كاملة. وتم رفع المتاريس، وقد سافر رجب أغا عن بر مصر. ولم يتبعه من أتباعه الذين كانوا يقاتلون معه

إلا عدد يسير والباقون فضلوا البقاء فى خدمة الباشا الذى كانوا يقاتلونه منذ ساعات والباشا أجزى لهم العطاء، فصار سيدهم وتاج رأسهم!
وفى ذلك أنجرح ومات من الأهالى عدد من الناس وكذلك أنجرح ومات من الأرناؤوط عددا منهم.
وخسرت البيوت المجاورة والتى نقبت الكثير من أثاثها ومتاعها وأوانيها ومخزون طعامها.
والناس باتت لاتتعجب مما حدث. لأن العجائب كانت تتوالى فى صورة أغرب، كل يوم!

***

(٤)
قطع أيام العسل
بين مشايخ مصرومحمد على

ثغر الأسكندرية، حتى أواخر سنة ١٨٠٧ م لم يكن تحت حكم محمد على، حتى جاء الأنجليز بحملة فريزر نتيجة لمكاتبات ورسائل بينهم وبين البكوات المماليك – والألفى بيك – بالذات.
المماليك الذين حاربوا الفرنسيين وخسروا مكانتهم فى العاصمة، وكثير من أموالهم ورجالهم. فقد أنهزموا إلى وجه قبلى فإذا بالانسحاب الفرنسى يتم وتسقط مصر فى يد محمد على، ويصير واليا بمعاونة فعالة من المشايخ والعلماء وأرباب السجاجيد.
وكان أول رد للجميل من قبل محمد على أنه أبطل "المسموح" والفائض والضرائب المقررة على المشايخ والفقهاء. وأى شئ يقررعلى البلاد كان يعفى المشايخ والفقهاء منه حتى اغرقهم فى الثراء – ولكنه فى نفس الوقت.
أبتدع كثير من المغارم والشهريات الفرضة التى فرضها على الأقاليم. وخص بها القرى والحوارى والمهن والتجار ولم يترك أحد وإلا وحصل منه تلك المغارم. حتى اكابر الأفندية، وأكابر العسكر، وأصحاب الالتزمات والحصص.
وكانت الأسكنرية خارج نطاقه، فأضاف عليها الشيوخ والفقهاء. لايأخذ منهم النصف أو الربع كما اقترح عليه المحاسبين الأقباط. وكذلك كان يسمح للشيوخ والفقهاء بالحصول على الهدايا و الجعالات من أصحابها نظير أعمالهم فى الفتوى، والتفسير، وإلقاء الأحاديث والدرس ومعظمهم نظار أوقاف لايحاسبهم إلاضميرهم.
فكثر مال الفقهاء والمشايخ. والناس حولهم تضج بالشكوى وهم يهدئون الخواطر بالكلام الربانى. وقال الله وقال الرسول وأولى الأمر منكم – والناس جعلوهم جزء من ديانتهم، فأضفوا عليهم نوعا من القداسة والتبجيل.
أغتر المشايخ بذلك. وأعتقدوا فى دوام الحال. وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها. والمحتاج يكون فى أضعف حال. فيرضى بالقليل، لأن لامنافس لهم. وأفتتنوا بالدنيا. وهجروا مذاكرة المسائل، وأداروا وجوههم عن المستقبل. ولم يفكر أحدهم أنهم بذلك يتم عزلهم عن بقية المتضررين. وقد صارت بيوتهم تنافس بيوت الأمراء. وما هم بأمراء، بل فيهم من درس فى الأزهر على لحم بطنه. وكان يأكل الجراية من الخبز بدون إدام. والآن آتخذوا الخدم والحشم.

والأعوان. فكان الناس يحسدون ذلك الخادم على ما هو فيه من نعم لأنه بات يعمل لدى شيخ أو فقيه. فهو فى حمايته ويتبغدد فى رغده. والوالى لايرد لهم طلباً أو يصدلهم وساطة، أو يتغاضى عن شفاعة.

***

وقد صور محمد على للناس بأنه يحكم البلاد بواسطتهم وأنه يعمل من أجلهم. وكان يتعمد أن يظهر كيف يتم تحصيل الفرض أو الفائظ والحصص والشهريات والمقادم من أفراد جيشه، ومن موظفى دولته، وحتى من ألضيشه وأقاربه. ويعلم الجميع أنه يفعل ذلك مع وعسكره. "ويعفى المشايخ والفقهاء من أى غرم" وذلك كان مقصوداً. وكان قد أثمر ما يرجوه الباشا. فقد نقم الناس على المشايخ والفقهاء الذين هم فى النعيم، ومعظم الناس تعانى من الجحيم والغلاء والندرة وأختفاء الغلال. وخاصة وأن البكوات (المماليك) كانوا قد استقالوا بوجه قبلى وقطعوا ورود الغلال والبلح والماشية وأشياء كثيرة كانت تصنع رواجا فى الأسواق. بعضها ياتى من الصعيد. وجزء منها يأتى من النوبة ودارفور.

***

ولما تعاظم شأن الفقهاء والمشايخ وأرباب السجاجيد تصدوا لمن يلوك سيرتهم. فكانوا بأعوانهم يقومون بتأديب طوال الألسنة بالحبس فى محابسهم. والضرب بالفلكة والكرابيج. وأستخدموا كتبة من الأقباط. وقدروا حق طريق لاتباعهم وكأنهم دولة داخل الدولة. وصارت لهم أستعجالات وتحذيرات وأنذارات تعاقب من يتأخر عن إرسال المطلوبات. وكان الفقيه والشيخ فى الأيام السابقة عن ولايتهم. يستمع إلى شكاوى الناس ويعمل على حلها، بأن يتصدى للبكوات اذا ما جاروا على حق من حقوق الأهالى فكان " الناس بالنسبة لهم هم الأهل.

باتوا الآن تضيق صدورهم، اذا ما أطال شاكى فى عرض شكواه، كما ظهرات المخاصمات بينهم، فسفه بعضهم بعضا. إذ أن الوالى كان يخص البعض منهم بمزيا معينة ويحرم الآخرين (عن عمد) فيأتيه ذلك الآخر بما يكون من اسراء الغريم. واذا ماواجه ذلك الغريم بما يقولونه عنه. وأنصح هو الآخر عن اسرار تحط من شأن منافسه واذا ما حدث بين الفقهاء والمشايخ وأرباب السجاجيد. ذلك والتحاسد والكراهية. ظهرت نفوسهم خبيثة. انفرط الناس من حولهم. وتأكد للباشا ان سلاحهم الذى كان يخشاه قد تم تدميره تماما– إذ لم تعد لهم الطاعة عند الجماهير.

***

هنا راح الباشا يفكر كيف يفك رقبته من أسر جميلهم، وقد اظهرهم أمام العامة من الناس. أن ديدن حديث المشايخ والفقهاء لم "تعد الأموار التى "تصلح من أحوال الناس وتوقف ظلم الحاكم للرعية.

بل انصبت أحاديثهم فى زياده ما هم عليه من تنافر وتحاسد، والتصارع على الرئاسة. والتكالب على سفاسف الأمور وخطوظ الأنفس على الأشياء الواهية. مع ما جلبوا عليه من الشح والشكوى والأستجداء وفراغ العين والتطلع إلى الأكل فى ولائم الأغنياء والمعاتبة عليها، إذا لم يدعوا إليها والتعريض بالطلب. وأظهار الأحتياج لكثرة الأشياع وأتساع دائرة المستفيدون من خدمه. وأرتكابهم الأمور المخلة بالمروؤة كالاجتماع فى سماع الملاهى والأغانى والآلات المطربة. وإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة–(شوبش على عالم العلماء)..وذلك فى السامر ليقرن أسم الفقيه الذى تناسى الدروس وزامل التيوس فى السامر "شوبش على حضرة شيخ الأسلام والمسلمين... مفيد الطالبين، معين المحتاجين .. فلان بن فلان". فيهيص له أوباش الناس ويتم الازدراء بمقام العلم بين العوام والأوباش.. مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد فى كل مجمع بحجة أن هناك ساعة لقلبك وساعة لربك.

وقد أنغمس معظمهم فى الهزيان والمضحكات وبعضهم قيلت عنه النكات منها الناقد والفاحش. وقد استخدموا ألفاظ الكناية المعبرة عنها عند أولاد البلد (بالتقافيه) والتنافس الحاد فى الأحداث والمضحكات!

كل ذلك حدث. وله تخطيط عند الباشا.ولعله كان متابعا لتدنى الشيوخ والفقهاء. وإن كان بعضهم ظل ملتزما فانه لم يسلم من الألسنة الحداد.

والغرض الذى لم يفقه له الفقهاء، هو فقدهم لمكانتهم بين عامة الناس. وكان الأجدر بالشيوخ أن يطلبوا مصلحة الناس قبل مصلحتهم. فهم لهذا الدور كان تراكم نفوذهم، وطاعة الناس لهم. "لكن لله الأمر من قبل ومن بعد" فقد حدثت الواقعة ولم يعد لمعظم المشايخ شأن!

***

لقد كان محمد على – وهو رجل أمى لايعرف القراءة ولا الكتابة– أذكى من الفقهاء والمشايخ، وهو يعلم بأنهم اذا أفاقوا..سيكون سلاحهم قد سقط من أيديهم. "أنها طاعة الناس لهم" على أساس ان المشايخ يعرفون حق الله ذلك عندما سيقوم الباشا محمد على بالأنقلاب عليهم وتشتيتهم. لن يجد بينهم من يتصدى له. وقد بدأ الباشا محمد على إنقلابه عليهم. عقب حصوله على الأسكندرية. اذ غادرها الأنجليز فى أواخر عام١٨٠٧ م، فدخلت فى حكمه. وعلى أثر ذلك. أبطل الباشا أى مسموح للمشايخ والفقهاء والمعافى التى صدرت لهم. بل وطالبهم بدفع الغرامات على كل ما يحوزونه ويملكونه وأثقل عليهم (بما يعنى أن زمن الإعفاءات لم يدم أكثر من عامين) ولم يجرؤ أحدا منهم على تنظيم أحتجاج وكان كل منهم يرجوا الباشا أن يعفيه شخصيا ويحصل من الآخرين. فكان الباشا يبتسم ويلاطفهم ولكنه يأمر بتصفية الحسابات عندهم على داير بارة وهنا. وشمت فيهم الناس(!) بل وجد الباشا من يؤيده بشدة.

فإذا ما وقعت الوقيعة بينهم وبين الوالى. وعزل من عزل. ونفى من نفى. وصادر ما صادر. فالناس فى مصر كانت راضية عما يجريه الباشا عليهم.. بل أن الناس فى مجالسهم الخاصة كانوا يؤيدونه ويدلونه على ما يخفونه.. وسبحان مغير الأحوال.

***

(٥)
صعود وسقوط السيد عمر مكرم

قبيل مجيئ الحملة الفرنسية، كان السيد محمد البكرى يجمع بين السجادة البكرية ونقابة الأشراف. واذا ما توفى. كان روثيه ابن عمه "السيد خليل البكرى"– وقد أستكثروا عليه الجميع بين المنصبين الكبيرين وهو رجل لايتسم بالرزانة الكاملة. فقد جعلوا السيد عمر مكرم الأسيوطى يقاسمه. فحصل السيد خليل البكرى على السجادة، ولها مخصصاتها وأوقافها، ومتحصالاتها. وأسندوا منصب نقيب الأشراف للسيد عمر مكرم الأسيوطى.

ومن هنا بدأ نجم السيد عمر مكرم فى الصعود وخاصة وأن البكوات – المماليك كانوا يقدرون الفقهاء والمشايخ، فيقبلون شفاعتهم وتدخلهم. وبات كبار المشايخ فى مصر هم زعماء الشعب الحقيقيين لكل طوائفة ومهنه وحارته، بل أمتد نفوذ المشايخ قبلى وبحرى القاهرة.

ولكن مجئ الحملة الفرنسية بدل كثيرا من الأوضاع، فقد حارب المماليك نابليون وأنهزموا أمامه. إذ أن العالم الغربى كان قد أكتشف كثافة النيران والرصاص التى تعوضه عن كثافة الرجال الشجعان وجهادهم فى طلب للشهادة.

وكان السيد عمر مكرم قد قاوم مع المماليك. وأنسحب معهم إلى الصعيد. ولكنه غادر مصر إلى الشام.

***

فجمع السيد خليل البكرى بين المنصبين. السجادة البكرية ونقابة الأشراف. وكان عونا للفرنسيين. وفى ثورة القاهرة الأولى حرق العامة بيته ونهبوه وكادوا يقتلونه. لكن نابليون أعتبر ثورة القاهرة معركة لايريد أن يخسرها فضرب المدينة بالمدافع، وحرك قواته بما يتسم به من عبقرية حربية، وأدى ذلك أن يحبط ثورة القاهرة الأولى.. واستعاد السيد خليل البكرى مكانته وعرضه الفرنسيين عما فقده. وأندمج فى حياة الفرنسيين. ضاربا بالتقاليد والعادات عرض الحائط غير مبال بنقد يوجه له من الأهالى، حتى أنه ترك لإبنته أن تتشبه بالفرنسيات. وأعتبرها الأهالى متهتكة.

ولكن اذا ما أوشكت الحملة الفرنسية على الرحيل حاول السيد خليل البكرى ان يغسل من "الخيانة" بان قتل أبنته، وأعتبرها مارقة عندما تهيأت الحملة الفرنسية لمغادرة مصر.

لكن ذلك لم يغفر له فقد عاد لسيد عمر مكرم إلى منصبه كنقيب للأشراف. وكان مع عدد كبير من المشايخ أحد أهم من عضدوا. محمد على قائد الباشبوزق (القوات غير النظامية) ليكون واليا على مصر.

فقام محمد على بإعفاء المشايخ والفقها من أية ضرائب او غرامات أو فرضة – وسمح لهم يتحصل الضرائب من فلاحينهم لحسابهم. وكان يقسو على الناس. لايفرق بين مهنيين وتجار وفلاحين – فى جمع أكبر كمية من المال. فلم يعد المشايخ يساندون من يشكو او يعجز عن الدفع ومن يتعرض للحبس والأهانة بسبب فقره. بل كانوا يبررون للباشا تصرفاته!

ولما كان المشايخ قد عاشوا عيشة الأمراء، فقد تعمد الوالى أن يظهر ذلك للعامة. ويقول أمام الناس اذا ما طالبوه يرفع المظالم – ليس أنا بظالم. بل أنتم أيضا تظلمون – أنا آخذ لأ دفع للعسكر وأنفق على مشروعات البلد. لكن أنتم تأخذون بدون ما تحصلون عليه. فتكتنزونه وتوسعون به على أنفسكم. ليتنى أعيش عيشتكم".

فأن ذلك يتم عن خبث وذكاء، لم يقابله شئ من المشايخ، فقد اندمجوا فى مباهج الدنيا. فإنفض الناس من حولهم. ولم يعد أحد يستجيب لندائهم. وكان ذلك السلاح مايخشاه الباشا الألبانى. واذا ما أختبر النتائج. ظهر أن سياسته هى الفائزة، فقد عزل المشايخ عن الشعب وبدأ التنكيل بهم، والتضييق عليهم وهدفه تصفيتهم!

***

ربيع الأول من ١٦ أبريل إلى – ١٥ مايو١٨٠٩م

شرع السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى عمل حفل كبير بسبب ختان أبن أبنته. ودعا الباشا محمد على وأنجاله والأعيان وجميع الطوائف. بل أنه دعى ضيوف من الوجه القبلى والبحرى. فأرسلوا إليه بالهدايا القيمة. وتم عمل زفة مشى فيها أرباب الحرف. طائفة وراء آخرى. ومشت العربان. والملاعيب. والجماعات الأهلية من المتصوفة. وجماعات تمثل بلاد – الصعيد وجماعات من أهل بولاق والحسينية. وجماعات من وجه بحرى ومن كل مكان فى مصر به شريف، فهو نقيبهم.

ولم يكن فرحا بل مهرجانا وأستعراضا، وكأن الغرض ليس الحفل وختان طفل – بل هى حالة أستعراض يقول بها للباشا محمد على انظر بنفسك ياباشا. لم يزل لى نفوذ وأنا بالذات لم أفقد كلمتى على كل هؤلاء الذى بعثوا بوفود منهم، وأنا فى أمكانى أن أجلب أمامك الشعب المصرى من الأسكندرية إلى أسوان".

وفى ذلك دقت الطبول وصدحت المزامير، وكان يوما مشهوداً جعل الباشا محمد على يبعث بلحيتة واجما. يرى بنفسه أن السيد عمر مكرم لديه عزوته. هى كل الشعب المصرى بطوائفه العديدة لقد وصلت الرسالة للباشا.

لكن هذا "الفرح"- كان آخر طنطنة للسيد عمر مكرم، فأنه عقب ذلك - بدأ الصدام بينه وبين الباشا محمد على!

إذ شرع الباشا فى أستعجال دفتر بنصف فائظ الملتزمين على أنواع الأقمشة. وكذلك كثير من البضائع حتى وصل الأمر إلى إدخال باعة النعالات (التى هى الصرم والبلغ) وجعلوا عليها ختم. فلا تباع صرمة او بلغة حتى يعلم الملتزم ويختمها ليحصل ما عليها من ضريبة يحسب تلك البضاعة وثمنها، فزاد ضجيج الناس فى الأسواق. وكثر احتجاجهم. وكثر اللغط. إذ ان الهم والغم أصاب الجميع. ومن يعترض يأخذ من الدارإلى النار، يؤخذ من بين أولاده إلى السجن والإهانة. والضرب بالكربيج. وإن كان الفلاحين قد زاقوا المرَ. فالباعة والمهنيون يوفرو ويذوقون الحنظل. وعليه فقد توجه عددا كبير من المظلومين إلى المشايخ فى الأزهر وكان على عادة المشايخ، الأجتماع فى الأزهر لقراءة الدروس.

وإذا بكثير من العامة الذين كانوا يرقصون ويبتهجون فى فرح ابن بنت عمر مكرم يأتون شاكين مولولين، فأبطلت الدروس. وأجتمع المشايخ بالقبلة. وأرسلوا إلى السيد عمر مكرم - النقيب - فحضر الرجل وجلس معهم. طيب خاطر الناس بكلمتين. ثم قام المشايخ وقام معهم وذهبوا إلى بيوتهم، وذهبت الأخبار إلى الباشا. وأجتمع المشايخ فى اليوم الثانى. وكتبوا عرض حال لما يبتظلم منه الناس ليقدموه للباشا. يذكرون فى عرض الحال المظالم والبدع التى جاءت فى دفتر الفائظ. وختم الأمتعة وطلب مال الوسية والرزق. والمقاسمة فى الفائظ. وكذلك ذكروا "كيف أخذ بالخطاء قريب التعلى وتم" وحبسه بلا ذنب. وكل شيخ كان لديه شكوى ذكرها فى عرض الحال وتعاهد المشايخ على الأتحاد أمام الباشا وترك المناقرة والأطماع بينهم. وإلا ذال كل شئ منهم،

ويبدو أن للباشا عيونا بينهم فقد سارع وأرسل إليهم (القائم بالديوان). فقال لهم :-

- الباشا بيسلم عليكم جميعا وبيسأل عن مطلوباتكم

فعرفوه بما سطروه اجمالا. فقال الأفندى :

- ينبغى ذهابكم إليه. تخاطبوه مشافهة. فهو ليس غريبا عليكم وهو لن يأخر لكم طلبا. ولا يرد شفاعتكم. أم أنكم أعتبرتوه غريبا منذ رفع عنكم حالات الإعفاء؟ ذلك لأن المال كثر عندكم ونفقات الباشا على الولاية تحتاج مساهمتكم.

وكاد المشايخ أن يشتبكو مع (ديوان أفندى) إذ ذكر ذلك ليثيرهم. ولكن السيد عمر مكرم سيطر على الموقف وطلب من (ديوان أفندى)- وهو رجل كبير السن - أن يحصر همه فيما قال به الباشا، وأن لايلقى على المشايخ بآراء تخصه فى شكل مواعظ.

لكن (ديوان أفندى)- كعادة الأتراك - كان ينظر للشيوخ وحتى للوالى محمد على من فوق، فقال :

- ياحضرات المشايخ. أنتم لم تعرفوا كيف تسيسوا الوالى. هو أصغر منكم فى العمر. وكان يمكن ببعض الملاطفة أن تكسبوه. فالشباب يحتجزه الغرور. ولايقبل أن يتحكم فيه أحد، وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم أنفاذ الفرض، والأهالى يجلونكم بسبب أنفاذ أغراضهم بواسطتكم.

ولكن المشايخ كانوا يتوجسون ضيقة من ألاعيب الباشا. وخشية أن يحبسهم أو يتخلص منهم فى القلعة فقد قالوا فى لسان واحد:

- لانذهب إلى الباشا مدام يفعل هذه الفعال. أنه الآن يفعل ما يضايق الأهالى حتى يحرجنا، وهو يعرف أفعاله وأبعادها. اذا رجع عنها أو خفف منها رجعنا إليه.

قال ديوان أفندى :

- هى اذن قطيعة بينكم وبين الباشا؟!
لكن السيد عمر مكرم أستمر مسيطراً على أعصابه. فقال لديوان أفندى بهدوء :
- ياديوان أفندى نحن بايعنا الباشا على العدل لاعلى الظلم والجور
فقال ديوان أفندى :
- أتقصدون أن الباشا ظالم؟
وأندفع المشايخ فى غضب يؤكدون بأن ما يحدثه لهو عين الظلم. ولكن السيد عمر مكرم كان يسد كل الثغرات التى يحفرها لهم (ديوان أفندى). فقال :
- نحن لن نجتمع به. ونحن لانثير فتنة. بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا، ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا. وما نحن إلا واسطة خير. رغب فيها الباشا كان بها، إذ لم يرغب يتركنا فى حالنا.
وحمل ديوان أفندى العرض حال.. ووعدهم برد الجواب. ووقف أمام السيد عمر مكرم وقال:
- سآتيك بالجواب حالا يا حضرة النقيب. أما عن قريب السيد حسن البقلى الذى كان محبوسا ظلما. فهو الآن لم يعد محبوسا. أنه فى بيته مطلق السراح، وكان الباشا قد فعل ذلك أكراما لكم مسبقا.
فلم يدر المشايخ. هل يتقربون للباشا مثل الأيام التى كان الباشا لايفعل شئ إلا برضاهم. أم يتباعدون عنه بعد أن كثرت مطالبه دون الرجوع إليهم؟
***
وبقيت المطلوبات تتم بنفس الشدة. والشكاوى من الأهالى تتواصل. ولم يرد ديوان أفندى إلى المشايخ. وقد مضت خمسة أيام، وكان أن اجتمع الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى عند محمد أفندى طبل – ناظر المهمات وثلاثتهم يحملون الضغينة للسيد عمر مكرم. منذ أن أقام حفل طهور ابن أبنته، وتلقى كثيرا من الهدايا من معظم الطوائف والمهن والأعيان وكذلك الباشا وأنجاله وأقاربه وقواده!!
ثم حضر الشيخ المهدى مع الشيخ الدواخلى إلى السيد عمر مكرم فى بيته وأخبراه أن (محمد أفندى طبل) ناظر المهمات. ذكرلهما أن الباشا لم يطلب مال الأوسية ولا الرزق. وقد كذب من نقل ذلك. وأبلغوه بأن الباشا صرح بأنه لايخالف المشايخ ولم يزل يحترم مشورتهم. وعند إجتماع المشايخ فى ديوانه سوف يحصل كل المراد.
لكن السيد عمر مكرم كان يعرف مشاعر الثلاثة نحوه وكيف يتقربون للباشا، ولا تهمهم إلامصالحهم، وكان قد وصل له. ما يقولونه حول ختان ابن أبنته. وأن ذلك لم يكن يستحق "الهيصه" التى فعلها. وكيف أستفاد من هذا (الفرح) إفادة، تجعله يعيش مابقى من عمره وعمر أحفاده.. فى حالة بحبوحة وثراء!
فقد قال لهما:
- يا حضرات المشايخ اعقلوها. اذا كان الباشا يعمل لنا خاطر، لماذا لم يرد على العرض حال؟ لماذا لم يقبل شفاعتنا؟!
ما إنكاره جلب مال الرزق والأوسية، فها هى أوراق من أوراق المباشرين. أنظروا إليها فقد حصلت عليها من بعض الملتزمين، مشتملة على الفرضة ونصف الفائظ ومال الأوسية والرزق.
وذلك يتم بالضرب والحبس والإهانة. ويتم على من هرب ومن بقى، ويصير الشخص مطاردا حتى يدفع. أما من يرغب منكما للذهاب إلى مجلس الباشا، فليذهب إليه. انا لا أمنع أحداً، أنا من جهتى لن أذهب إليه، إلا اذا قبل بالفعل شفاعتى فيما ذكرناه فى العرض حال. فإن كنتم تنقضون العهد الذى وقع بيننا... فالراى لكم، وكل واحد ينام على الجنب الذى يريحه!

كان المشايخ قد أنقسموا إلى عدة آراء. رأى يرى أن يتم مقاطعة مجلس الباشا ويعلم الجمهور أن الباشا لم يعد يقبل شفاعة المشايخ. ورأى ثانى. يرى أن تبقى شعرة معاوية قائمة، ويمكن الذهاب إلى مجلس الباشا وتقديم النصح له جهاراً وعلنا. وسوف ينقل ذلك للناس. فيبقى المشايخ لهم الكلمة. وأمام الجمهور يكونوا قد فعلو ما امكنهم. ورأى ثالث. يرى بأن الباشا هو الباشا. والماء لاتجرى فى العالى. وأن التعامل مع البكوات الأتراك. "له شأن آخر" عن التعامل مع البشوات المماليك وعلينا أن لا نعرض مصالحنا للتهلكة!

***

عيون الباشا كانوا ينقلون له كل ما يدور بين المشايخ من خلافات، وكيف أتفقوا وأقسموا.. وكيف بدأو يتفككون. فأخذ الباشا يدبر الأمر فى تفريق جمعهم. واذا ما أستعرض تجمع المشايخ وجد السيد عمر مكرم هو الذى يقف له فى المقدمة. فلا اجتماع للمشايخ يكون له شأن إلا اذا حضره السيد عمر مكرم. وهوالذى تكون له الكلمة الأخيرة وقد عكس عزوته فأعتبره الرأس لهم. وسقوط الرأس حتى لو كانذلك يسبب له بعض المتاعب إلا أنه أفلح. فلن يكون للجسم شأن يذكر.

نعم السيد عمر مكرم هو الذى أختاره واليا. وهو الذى جمع له القاص والدانى فأحاطوا به حتى حصل مراده. وهو حتى هذه الحظة يشكل خطر عليه فإذا شاء فعل.

وكان أن بدا الباشا فى التقرب إلى المشايخ أصحاب الرأى الذى يجد صدى فى نفسه. أنهم جماعة لايهمهم النظر إلى إلا مصلحتهم، ولا تعنيهم مصلحة الجماهير. جماعة لاتطلب زعامة. فيكون العمل بها مضمونا.

***

حضر (ديوان أفندى) وعبد الله بكتاش الترجمان. وحضر المهدى والدواخلى، الجميع ذهبوا إلى بيت السيد عمر مكرم وأجتمعوا به. وطال بينهم الكلام. حول ضرورة أن يطلع إلى ديوان الباشا فى القلعة. والجميع كانوا فى ناحية والسيد عمر مكرم فى كان الناحية المضادة. وحضر الشيخ الأمير فطالبوه بأن ينضم إلى الجماعة المتساهلة مع الباشا، فأعتذر الشيخ الأمير بأنه متوعك وبطنه تفرك عليه ولولا ذلك لصعد معهم إلى الباشا.

ماذا فى ذلك؟ الأجتماع بالباشا شرف دونه أى شرف وسارع وغادر بيت عمر مكرم...

وعلى الفور قام الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى وخرجا صحبة ديوان أفندى والترجمان. وطلعوا إلى القلعة وتقابلوا مع الباشا. ودرا بينهم الكلام. من ناحية الشيوخ. وهو تعظيم للباشا. لكن الباشا بعد أن تقبل تحيتهم قال:

– أنا لاأرد شفاعتكم ولا أقطع رجاءكم. والواجب عليكم اذا رأيتم منى أنحرافا ان تنصحونى وترشدونى.

فهلل المشايخ لذلك. ولم يكن أحد منهما يتوقع أو يسعى لشفاعة عند الباشا. وكان طلوعهم حتى لايغضب عليهم. أو حتى يتأكد بأنهما ليس فى جانب السيد عمر مكرم.

ولم يفكر أحدهما بان الباشا لم يرد على العرض حال. وكان يمكن بالرد الايجابى عليه. يوزع الشفاعة على جميع المشايخ. لكن الباشا اهتم وتمسك بأن يصعدوا إليه ويجتمعوا به. والآن يفرق بينهم. قال الباشا.

هل تعجبكم افاعيل السيد عمر مكرم؟ أنه يتعنت معى وكأنى ليس واليا على البلاد. فى كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى. ويخوفنى بقيام الجمهور وغضبه.

وقال الشيخ الدواخلى:

– اطمئن ياباشا. ولا يغرنك تلك التجمعات التى حضرت
طهور حفيده. انها عادة شعبنا. تجمعهم طبلة ومزمار

ويفرقهم كرباج.
وقال الشيخ المهدى:

- هو ليس الإنبا.. وإذا تخلينا عنه فلا يساوى شيئاً ولمعلوماتك ياباشا. ما هو الإ صاحب حرفة. أو جابى وقف، يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين. فاهم يا باشـا، يـادوب يجمع ويوزع. يعنى إذا..

ولكن الشيخ الدواخلى عض على شفته فكف الشيخ المهدى عن اندفاعه. ولكن الباشـا كان قد تبين القصد الذى قصده. واعتبر الحقد الذى فى نفوسهما مساعدا له علـى مـا ينوى فعله. فقد سأل:

- وبقية المشايخ هل يرون رأيكما ؟!

فقال الشيخ الدواخلى:

- انا حضورى عند معاليك. ليس حضوراً شخصياً، أنا أحضر بالأصالة عن نفسى ونيابـة عن الشيخ الشرقاوى وعدد كبير من الفقهاء.

وإذا ما أنتقل الباشا إلى الشيخ المهدى. كان هو أيضا يحضر نيابة عن عدد من المشايخ والفقهاء. فإن عادة المشايخ أن يكون لهم كبير. وأكد الشيخ المهـدى علـى ذلـك وذكـر مجموعة من الأسماء.

***

أمر الباشا بإكرام الشيخين الكبيريين. وبعد الإكـرام قـاموا منـصرفين مذبـذبين ومظهرين خلاف ما هو كان فى نفوسهما من الحقد وحظوظ الـنفس. غيـر مفكـرين فـى العواقب. والغريب هم الذين أوصوا الباشا بأن السيد عمر مكرم لاشأن له بـدونهما. عنـدما نزلا من القلعة. توجها فوراً إلى بيت السيد عمر مكرم، ودخلا عليه وهـو ممتلـئ بـالغيظ. انهما يخالفانه. ثم يوحيان له بأنهما يجلانه. فحضروهما إلى بيته فور نزولهما من القلعـة. يعنى وكأنه هو الذى أوفدهما. مع أنه كان يعارض اجتماع المشايخ بالباشا حتى ينفذ شفاعة الشيوخ ويرفع المظالم.

وكان عمر مكرم ضائقا من تفكك كلمة المشايخ ونقض العهد. فأخبروه بأن الباشـا لم يحصل منه خلاف. واعادوا قول الباشا بأن الباشا قال : لا أرد شفاعتكم. ولكـن نفـسى لاتقبل التحكم. والواجب عليكم اذا رأيتمونى فعلت شيئا مخالفا أن تنصحونى وتتشفعوا. فأنا لا أردكم. ولا امتنع من قبول نصحكم. وما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر، فهـذا لايتناسب منكم. وكأنكم تخوفونى بهذه الاحتماعات وتهددونى تبهييج الرعيـة. كمـا كنـتم تفعلون أيام المماليك، فأنا لا افزع من ذلك. وإن حصل من الرعية أمر ما. فليس لهم عنـدى إلا البارود والسيف والإنتقام.

وقالوا: هذا ما قاله الباشا.

واهتاج عمر مكرم أكثر ولكن الشيخان سارعا بإبلاغه بما قالوه للباشا:

- قلنا للباشا. هذا لايكون. ونحن لانحب الثوران. فنحن فى مركب واحد، إذا غرقت غرقنـا جميعا. والفتن كالفيضان تأخذ الأخضر واليابس. وانما اجتماعنا كان لقراءة البخارى وندعو الله أن يرفع الكرب.

وقالوا : ووعدنا الباشا بأنه سوف يرفع الدمغة ويرفع تضعيف الفائظ إلى الربع بعد النصف. وانكر الباشا الطلب "بالأوسية والرزق" من أقليم البحيرة..

استمع السيد عمر مكرم لهما، وهو فى منتهى التعاسة. واذا ما قاما منـصرفان لـم يتمسك ببقائهما. وكان ما يشغله. انفتاح باب النفاق. واستمرار القيـل والقـال. وأن يـدفع المشايخ فى كل مجال بمقال وكان يعرف بأنه المستهدف. وما كان يمكن للباشـا أن يقـرب الدواخلى والمهدى منه إلا ليكيده بهما وبمن يختبئا خلفهما.

***

غرة جمادى الآخر ١٢٢٣هـ
١٤ يوليه ١٨٠٩ م

حضر "ديوان أفندى" وبرفقته الترجمان عبد الله بكتاشى. واجتمع المشايخ ببيت السيد عمر مكرم. وتكلموا فى شأن الطلوع إلى الباشا لمقابلتة. وأندهش عمر مكرم من إلحاح الباشا على أن يطلع له المشايخ ويكون فى مقدمتهم عمر مكرم!

وقد أبلغه الشيخان الدواخلى والمهدى. أن قبل الباشا شفاعة المشايخ. حتى أن السيد عمر مكرم توجس خيفة. أن يكون الباشا قد دبر له شيئا، فيقتله أو يحبسه أو يخبئه فى مكان وينكر أنه يعرف أين ذهب.

والحضور يلحون على السيد عمر مكرم بالطلوع إلى القلعة حتى أنه أقسم بالله العلى العزيز..بأنه لن يطلع إلى القلعة... إلا اذا أبطل الباشا تلك البدع فى جمع المال من الناس، وقال:

– ياجماعة اعلموا بأن الناس تتهمنا نحن المشايخ بأننا نوالس مع الباشا. ويزعمون أنه لايتجرأ على شئ يفعله إلا بأتفاقى معه، ولعله هو الذى اشاع ذلك.

ولكن معظم الحضور كانوا يلحون فى أن يطلع عمر مكرم معهم إلى القلعة "وهناك نعمل ونقول ما فيه الخير".

ولما تمسك السيد عمر مكرم بالرفض القاطع فى عدم الطلوع مهما حدث من تبعات. فقد أقترح المشايخ بأن يطلعوا جميعا دونه، وأرسلوا إلى الشيخ الأمين فأعتذر بأنه مريض وينوبهم عنه. ومن شاهده فى الفراش منكمشا أبلغ المشايخ بأنه مريض بالفعل ولا يستطيع المشى أو الركوب وأنه موافق مقدما على ما يتخذونه من قرارات. ثم اتفقوا على طلوع الشيخ عبدالله الشرقاوى. والمهدى والدواخلى والفيومى. وضغطوا على السيد عمر مكرم بأن يوافق على طلوع المشايخ مادام هو لايقبل. فقال ضائقا:

– الآن تتصرفون وكأن كل المشكلة هى الطلوع والنزول من القلعة، وكأن لامشكلة فى الأموال والمظالم. على العموم ما ترونه يناسبكم افعلوه يامشايخ. أنا متمسك بالمبدأ. اذا رغب الباشا فى أن أطلع له يرفع المظالم الحقيقية وليس بإكلام. فالأفعال جارية على قدم وساق.

وتركه المشايخ وطلعوا إلى الباشا. وكان كل ما يهم الباشا هو. عدم حضور السيد عمر مكرم إلى مجلسه. وأن فى ذلك شبهة التمرد.

وقد تكلم المشايخ مع الباشا. وكانت لهم لغتين لغة ظاهرة معتادة. يمكن أن ينقل منها السامعون ما يشاؤون أما اللغة الأخرى. فيفهمها الباشا. كانت لغة باطنية تعنى بأن المشايخ الحضور نيوبون عن كافة المشايخ والفقهاء، ولكنهم لاينوبون عن السيد عمر مكرم. والغريب أن المشايخ بعد اجتماعهم بالباشا. نزلوا إلى بيت السيد عمر مكرم. وأخبروه بما حدث. مع تخفيف الكثير من حديث الباشا عنه

أبلغوه بأن الباشا سوف يرفع الطلب عن الأطيان الأوسية وتقرير ربع الفائظ. فتنهد السيد عمر مكرم. وسأل المشايخ : وأعجبكم ذلك؟!

فرد عليه الشيخ الدواخلى : ماذا تقصد؟!

فقال السيد عمر : لقد أرسل لى الباشا بأنه سوف يقر ربع الفائظ فرفضت. بينما أنتم كنتم فى حضرته توافقون. قلت له يرفع بالكيلة، وإلا صار سنة متبعة، فعاهدنى على أن تكون هذا العام فقط... أما قوله بأن يرفع الطلب الخاص الأوسية وارزق فلا أصل لذلك، وهاهى أوراق البحيرة .. وجهوا الطلب هناك، وبلغنى أن الناس تضج بالشكوى يامشايخ. ولعلكم يامشايخ تذكرون ظلمه وما أحدثه فى العام الماضى. عندما فرض "فرضة الأطيان" وادعى

لزومها لاتمام العلوفة! وحلف أنه لايعود لمثلها ثانية، فقد عاد وأزاد. وأنتم توافقونه وتسايرونه ولا تصدونه بكلمة، وأنا الذى صرت وحدى مخالفا وشاذا فى نظره.

واذا ما وجه السيد عمر مكرم اللوم للمشايخ قاموا وفضوا المجلس غاضبين. وتفرقت الآراء، وبدأ سوق النفاق. وكثر سعيهم من وراء بعضهم. وتحركت حفائظ الحقد والحسد. والباشا لايكف عن مراسلة السيد عمر مكرم ويطلبه للحضور إليه والاجتماع به. واشاع الباشا أنه يرتب للسيد عمر مكرم كيسا كل يوم، ويعطيه فى الحال ثلاثمائة كيس.. وإن كان الباشا هو الذى أطلق ذلك، فقد تم نقله للجمهور بأن السيد عمر مكرم ممتنع عن الطلوع إلى الباشا لأنه يشترط الحصول على كيس كل يوم!!

***

وقد تعكرت المياه الجارية بين الباشا، والسيد عمر مكرم. فإن الباشا كان يتجسس على بيت عمر مكرم، ولابد وأن يعرف يوميا من الذى تردد عليه. وخاصة من كبار العسكر.. فإن بجماعة الأرناؤوط كانوا يتابعون ذلك الخلاف. ويتحينون الفرصة. ويحلمون بأن ما فعله السيد عمر مكرم لمحمد على قد يفعله لأحدهم فيأتى الفرمان من اسلامبول. كما هو معتاد ينقل محمد على إلى احدى الولايات البعيدة. ويتضمن اسم ذلك الطامح الجديد للولاية. والمؤيد بشعبها وزعمائها. وخشى محمد على من الزملاء الذين يحسدونه على ما هو فيه. وبعض عسكر الأرناؤوط الكبار طيبو خاطر السيد عمر مكرم واعربوا عن كراهيتهم للباشا محمد على وأنه مغرور لايحفظ الجميل لصاحب الجميل.

لكن عمر مكرم كان حذراً. ويعرف لؤم الباشا. وأنه قد يلقى عليه بمن يسايره ثم يصبح شاهداً عليه. فلم يخطئ. كما أنه لم يصعد إلى القلعة. والذين يعملون فى الوساطة تحركهم الأهواء المختلفة. وكل منهم ينقل ما ينقله بحسب الأغراض والأهواء التى فى داخله!!

***

وأثناء ذلك الغضب جاء وقت على الباشا، لابد وأن يعد عرضحال لوزير الدولة فى اسلامبول بالمتحصلات فى الولاية. والنفقات (ميزانية) وكتب أن جملة المتحصلات هى أربعة آلاف كيس.

تقابلها المصروفات، فى المهمات. مثلها فقد صرف فى سد ترعة الفرعونية فى حدود الثمانمائة كيس. وعلى تجاريد العساكر لمحاربة الأمراء المماليك حتى دخلوا فى الطاعة. ألف وخمسمائة كيس. وما صرف فى عمارة القلعة والمجراة التى تنقل المياه إليها "سبعمائة كيس". وفى حفر الخلجان والترع ألف. وأشار وبنقص "المال" بسبب تمردات "القبالى" وتعويضات ترفع للمتضررين.

وأرسل الباشا العرضحال إلى السيد عمر مكرم ليضع عليه خطه وختمه كما هو متبع.

ولكن السيد عمر مكرم امتنع وقال:

– ما الذى صرفه على سد الترعة الفرعونية، فالذى جباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافا كثيرة. وأما غير ذلك فهو كذب لا أصل له، فقد توالت الجبايا عن تلك الأسباب بأكثر من سبعة آلاف كيس، ولم ينفق إلا القليل. "أين ذهبت تلك الأموال"؟!

وذكر بأن الباشا يقرر كثير من البدع. حتى وصل الأمر بختم البلغ والصرم والنعال. "ياناس حرام عليكم. أين تذهبون من حساب الخالق. اذا ما غالطم الخلق".

***

ولمارد المرسال إلى الباشا بذلك الكلام وامتناع السيد عمر مكرم عن وضع خطه وختمه. اغتاظ الباشا. وارسل إليه بأن يصعد إليه ويجتمع به، وأنه فى أنتظاره. فأقترح عمر

مكرم إن كان ولابد من الاجتماع بى. فذلك يكون فى بيت الشيخ السادات، أما طلـوعى إليـه فى القلعة فذلك لن يؤخر أو يقدم، وعلى الباشا أن يكف عن العناد ويتذكر خدماتنا له.

ولما اخبروا الباشا بأقتراح عمر مكرم أن يكون الاجتماع بينهما فى جملة المـشايخ وفى بيت شيخ السادات قال غاضبا:

– ابلغت به الجرأة أن يهزأ بى ويزدرينى و. يأمرنى هو بالنزول. وأنا الوالى أمره بالطلوع فلا يطلع؟ أنتم ترون أن محل حكمى هو القلعة وليس بيت الشيخ السادات. وتعقدت العلاقـة بين الباشا وعمر مكرم اكثر فأكثر!

***

٢٧ جمادى الآخر ١٢٢٣هـ
٩ أغسطس ١٨٠٩ م

ركب الباشا ونزل من القلعة وتوجه موكبه إلى بيت أبنه ابـراهيم بيـك الـدفتردار. وكان برفقته ابنه طوسون بيك الذى اصبح بمثابة قائدا للعسكر. وعندما جلس فى بيت ابنه ابراهيم، طلب القاضى والمشايخ جميعا. وأرسل إلى السيد عمر مكرم رسولا مـن طرفـه. ورسولا من طرف القاضى. يطلبه للحضور. وأنه نزل له وتغاضى عن الطلوع إليـه. لكـن الرسولين رجعا كسيفين. وأبلغا الحضور بأن السيد عمر مكرم يقول بأنه شرب دواء، وأنـه اذا ما شرب هذا الدواء يدوخ، فينام ولا يمكنه الحضور فى هذا اليوم!!

وكأن الباشا كان يتوقع رد فعل السيد عمر مكرم. فقد أحضر معه خلعـة. واذا مـا تغيب السيد عمر مكرم. فقد كان شيخ السادات الوفائية. والشيخ الشرقاوى ضمن الحضور. فعند ذلك فجر محمد على مفأجاته، قام بعزل السيد عمر مكرم عن نقابة الاشراف. وأعطـى المنصب لشيخ السادات على نقابة الاشراف. وخلع عليه خلعة. قام وألبسها له. وقد قوبـل ذلك بشيئ من الترحيب والابتهاج من معظم المشايخ، إذ رأوا بأن السيد عمر مكرم. أذاد فى الممانعة حتى أهان "الباشا الوالى" الذى تحمله كثيراً. ونزل من أجله إلى بيت ابنه ابراهيم!

وعلى الفور اخذ الباشا يطرق الحديد وهو ساخن فقد اصدار أمـراً بكتابـة فرمـان بخروج السيد عمر مكرم من مصر ونفيه – فى اليوم والتاريخ – خارجها.

ولكن عدد من المشايخ تشفعوا له عند الباشا فى أن يحصل على مهلة ثلاثـة أيـام يقضى فيها أشغاله. فأجابهم على ذلك. ثم سألوا الباشا فى أن يذهب السيد عمر مكرم إلـى بلدته أسيوط ويستقر بها ولايغادرها.

لكن الباشا كان قد شاهد الأسيوطية وهم يحتفلون بختان ابـن أبنتـه يـوم الفـرح العظيم. وخشى أن يصنع هناك تكتلا من الصعايده ويستقل بالبلد، ففكر قليلا ثم قال:

– لا ياحضرات المشايخ. ذلك لايعتبر نفيا وعقابا على تمرده، تلك تعتبر مكافأة. فكل منا يتمنى أن يعود إلى مسقط رأسه غانما. بعد جهاد الاغتراب، المفـروض أن نزيـد فـى اغترابه، فليختار بين الاسكندرية ودمياط. ولاثالث لهما.

ولما كانت الاسكندرية تعتبر منفى حقيقى لمن يغضب عليه الحكـام. وفيهـا لايـتم الاحتفاظ بالمنفى هناك بل يرسلون خلفه من يخنقه، ويشيعون بأنه سافر وركب البحر فقـد آثر السيد عمر مكرم أن يذهب إلى دمياط. وله هناك عزوة أيضا، وأنـاس يعرفـون قـدره وأخلاصه!

***

ولما ورد خبر النفى على السيد عمر مكرم. ظن خصومه أنه سوف ينهـار ويعـدل عن تصرفاته. لكن الرجل أستقبل الأخبار فى وجوم للحظات ثم قال:

– أما منصب النقابة، فأنى لا ارغب فيه.. فليس فى ذلك إلا المشاق والتعب. وأما النفى خارج مصر (المدينة) فذلك مطلوبى مادامت قد فاضت بالنفوس الرديئة. ولكن كنت أتمنى أن أكون فى بلدة ليست تحت حكم الباشا فليأذن لى بأن أذهب إلى الطور أو أدرنة.

ونقلوا للباشا رغبة السيد عمر مكرم فى أنه يريد أن يبتعد أكثر إلى الطور أو أدرنة. فلم يرضى الباشا إلا بذهابه إلى دمياط، وبذلك تم ابعاد السيد عمر مكرم عن العاصمة.

وقد اوكل السيد عمر مكرم. السيد محمد المحروقى. فذهب إلى الباشا وكلمه. بأن السيد عمر اقامه وكيلا على أولاده وبيته ومتعلقاته. فأجازه الباشا بذلك. وقال:

– هو آمن من كل شئ. وأنا لم ازل أراعى خاطره.فقد قدم لى يوما معروفا. أنا لن أنساه. وإلاقال الناس عنى. كلاما بطالا، طمائنوه وقالوا له أنت الذى حبكتها ياعمر..!

***

اجتمع المودعون للسيد عمر مكرم. وفيهم الذين يحبونه والذين ينافسونه، الذين كأنو يستفيدون من تواجده. والذين أرتاحوا لعدم تواجده. ثم حضر محمد كتخدا ويعتبر وكيلا عن الباشا – وعند وصوله قام السيد عمر مكرم وركب فى الحال. وخرج مع صحبته، وشيعه كثيرا من المتعممين وغير المتعممين وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه!

وكذلك أغتم الناس على سفره وخروجه من مصر فقد كان شفيعا وسدا منيعا يقف ضد الظلم والجور. وكان ركنا ركينا. ومقصداً للناس. يتعصب لنصرة الحق، لكن كان ذلك مصيره الذى يقابله رابط الجأش. وكل مايؤلمه ليس ما يأتيه من الباشا، ولكن ما يأتى له من المشايخ المنافقين!

***

سار عمر مكرم إلى بولاق. ونزل فى المركب وسافر من ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج إليهم.

وفى نفس الوقت، والمركب مسافر فى النيل إلى دمياط، كان الشيخ المهدى يقابل الباشا. ويطلب وظائف السيد عمر مكرم لنفسه وهى التى خارج نقابة الاشراف. فأنعم عليه الباشا "بنظر أوقاف الامام الشافعى".

وكذلك نظارة وقف سنان باشا ببولاق. على أن يحاسب الشيخ المهدى على المنكسر للباشا عن عددة سنوات من لاتقل عن أربع سنوات!

وأمر الباشا بأن تدفع نقدا والشيخ المهدى ثرى يدفع مضت له "حر ماله" وقدر المطلوب بخمسة وعشرون كيسا فقط وذلك نظير اجتهاد الشيخ المهدى فى خيانة السيد عمر مكرم.

***

غرة شعبان ١٢٢٤هـ
١١ ستمبر١٨٠٩

بناء على طلب الباشا. قام المشايخ بتنسيق "عرضحال" يطعن فى حق السيد عمر مكرم، ليرسله الباشا صحبة السلحدار إلى اسلامبول، وذكروا فيه سبب عزله ونفيه عن مصر إلى دمياط. وعدد المشايخ فى (العرضحال) مثالب ومعايب وجنحاً وذنوبا قام بها السيد عمر مكرم، فتطلبت الغضب عليه. وقالوا كتابة "فى صياغة رصينة".

* أنه ادخل فى دفتر الأشراف أسماء أشخاص ممن أسلم من القبط واليهود. وقد جعلهم اشرافا متسبين إلى قريش وآل الرسول الكريم، مقابل هدايا وبرطلة (!!) أخذها لنفسه.

* وأنه حصل من "الألفى" على مبلغ كبير من المال ليملكه مصر، وذلك أيام فتنة أحمد باشا خورشيد.

* وانه كان يكاتب الأمراء "المماليك" فى وقت الفتنة لأنه يكره جنس الترك. ويحابيهم فى نفس الوقت. وقد حضر الأمراء من الصعيد يوم قطع الخليج وحدثت الفتنة التى أوقعت كثيراً من القتلى الترك وكان هو السبب والمتسبب!
* وأنه أراد الايقاع بالفتنة بين العساكر الترك، فكان يقرب لنفسه كبارهم ويمنيهم بولاية مصر جاعلا من نفسه سلطان البلاد!
* وانه كان يجمع حوله فئات من الصعائدة واخلاط من المغاربة واخلاط من العوام. يتقوى بهم وينفق عليهم مما ينهبه من أوقاف الشافعى وسنان الباشا حتى يتقوى بهم أمام الحكام. ويمكن أن يثيرهم فى أى وقت..

***

وتفتقت عبقرية المشايخ فى الكذب، فإدعوا على الرجل إدعاءات كثره. فإذا سقطت البقرة كثرت السكاكين. وذا مافرغوا من كتابة العرضحال. وضعوا عليه اسماء المشايخ الكبار. وذهبوا إليهم ليحصلوا على توقيعهم وأختامهم. ولكن عدد كبير ممن كتبت اسمائهم امتنعوا. وقالوا

– هذا لغو فارغ. وكلام لاأصل له.

ووقعت بين المشايخ محاججات ولوم. وامتناع والقلة المخاتلة الكاذبة كانت تلح وتهدد بغضب الباشا قائلين.

أنتم لستم بأفضل منا، نحن وقعنا. وأنظروا إلى أسماء الكبار الموقعين مقدما.

فحدث شجار بين المشايخ وتبادلوا القبيح من الألفاظ.. وأنتهوا بأن يتم تغيير صورة العرضحال بأقل التحاملات. فالتقى لا يعنى الموت. والنفى يعنى أن النافى لم يزل يكن شيئا من الود للمنفى، وقد يعيده إلى سابق وظائفه ويكون له عضداً من جديداً !

***

وكان من المتمنعين والمدافعين عن شرف السيد عمر مكرم، السيد أحمد الطحطاوى الحنفى. فزادوا فى التحامل على ذلك الرجل حتى غرلوه، فقد وسلطوا عليه شيخ السادات. والشيخ الأمير ومن تبعهما. وذلك جعل كل من يريد أن يذكر كلمة حق فى شرف السيد عمر مكرم. يخشى هجوم المشايخ عليه وعزله. كما يخشى أن يزيفوا عليه عند الباشا فيضطهده ويقطع عنه مخصصاته!

***

اما وقد عزلوا الشيخ الطحطاوى من افتاء الحنفية فقد عينوا مكانه الشيخ حسن المنصورى. وركبوا صحبته وطلعوا به إلى القلعة، بعد أن مهدوا له عند الباشا وألبسوه فروة القائمقام، ثم نزلوا به. وطاف للسلام على أتباعه، والشيوخ يحيطون به.

فلما بلغ الخبر الشيخ الطحطاوى، طوى الخلع التى كانوا ألسبوها له عندما تقلد الإفتاء بعد موت الشيخ ابراهيم الحريرى، وأرسلها لهم.

وكان الشيخ السادات قد ألبسه حين ذلك فروة فلما ردها عليه أحتد وأغتاظ. واخذ يسبه. ويذكر لجسائه جرمه ويقول.

انظروا إلى هذا الخبيث. وكأنه يجعلنى مثل الكلب الذى يعود فى قيئه!

***

اما السيد احمد الطحطاوى فقد لزم داره لايخرج منها إلا إلى الشيخونية بجواره. واعتزل المشايخ وتباعد عنهم. وهم يبالغون فى ذمه وإرهابه. وذلك لأنه لم ينافق ويكذب مثلهم، ويوافقهم على الزور والحسد!

والناس جميعها كانت تعرف بأن السيد عمر مكرم كان ظلا ظليلا عليهم. وعلى أهل البلد، ولم تقم للمشايخ من بعده قائمة ولا كرامة عند حاكم و(ذلك السيد عمر مكرم.. الذى لايغتفر أنه اعان يوما ظالما. ومن اعان ظالما سلط عليه).

محمد على
ينفرد بالحكم

غرة ذو القعدة ١٢٢٣ه

بدون مقدمات قام الباشا محمد على بعزل السيد المحروقى عن نظارة الضربخانه. ونصب بها شخص آخر فلزم السيد المحروقى بيته. ومع أن جميع المشايخ عرفوا بما حدث، إلا أن لاأحد منهم قام بزيارته فى بيته. وكانوا معتادين على الاجتماع به. وقيل أن الشيوخ فى كرب. لكن لم يعبر أحد فى كربه ولو باحتجاج أو محاولة معرفة سبب عزل السيد محمد المحروقى. وكان أمر اقل من ذلك كثيرا- اذا ما حدث من البكوات "المصرلية" يرغمونهم على التفسير وإعادة التفسير، وقد يعيدون الأمر كما كان عليه بعد مجلس صلح!

كان مشايخ البلد لهم نفوذ. أما الآن فكل شخص منهم بات يخشى أن يأتى عليه الدور!

***

٢٢ مارس ١٨٠٩

حضر إلى القاهرة – من الصعيد – على بيك أيوب، وبصحبته رضوان بيك البرديسى. مع حملة من أتباعهم. مصالحين الباشا، وطلعا إلى القلعة وتقابلا مع الباشا. وأنخضع على بيك أيوب للباشا، ومال على رجله ليقبلها عندما علم بأن الباشا يجهز تجريده كبيره على "امراء المماليك" فى الصعيد. وترجاه أن يؤجل التجريده وقال "الصلح يسرى فى صدور الجميع. والأموار مهيئة بأن تنتهى، بين الباشا وبين أمراء المماليك هناك، على خير ما يرام!

فتكلم الباشا فى أمر الغلال المنكسرة بالصعيد والمحجوزة هناك، فتوعد على بيك أيوب بأن الغلال ستأتى إلى (مصر) بالسعر القديم. وبالكيل الجديد. وليس عندهم نية لتعطيلها وأنه مطمئن على ذلك.

قال له الباشا : أنتم إذا حصدتم الغلال اخذتوها وفريتم نحو الجبال، ليس هذه أول مرة تلاوعونى؟

وأستمر الحوار بين على بيك أيوب والباشا نحو أربعة أيام. ورضوان بيك البرديسى. يحضر شاهداً ولا يتدخل إلا ليلطف الأجواء دون إلتزام منه بشئ، كأنه جاء شاهداً على الأتفاق من طرف ابراهيم بيك الكبير.

ووكل القصد كان تعطيل خروج التجريدة على المخالفين بالصعيد إذ أن هناك أوقات تكون فيها الغلال بالغيطان ويحتاج المماليك إلى فى حصدها وتعبئتها فى الصوامع لكن محمد على باشا. لم يوقف الاستعداد لتجهيز التجريدة على الصعيد. واستخلاصه بالقوة. وخاصة وأنه تكشف كيف أن الأمراء المماليك فى حالة تنازع وعدم أتفاق. وبالتالى فقد رغب أن يختبر من أكرامهم بالعطايا والمخصصات من أمراء المماليك. إذا كانوا يخلصون له. حاربوا زملائهم بقوة. أو يصادر مخصصاتهم ويحاربهم بنفسه!

***

وقبل انقضاء شهر مارس من نفس العام. أوقف الباشا تجهيز التجريدة. وقد أرسل أمراء المماليك فى الصعيد – ثلث ما عليهم من غلال المسيرى وقدره مائة أردب والذى جاء بذلك القسط هو" شاهين بيك الألفى. الذى بات يساعد الباشا بكل أخلاص، فتزيد عليه نقمة الأمراء المماليك بالصعيد، واستمر على بيك أيوب ورضوان البرديسى فى قلعة الباشا حتى وصلت مراكب الغلال

من الصعيد. فأكرمهما وخلع عليهما وأوصاهما بإشاعة الصلح بين المتشككين!

***

٢٣ مايو ١٨٠٩

تردد بين مصر والصعيد – من الأمراء المماليك – القبالى – مرزوق بيك ابن ابراهيم بيك. وسليم أغا مستحفظان. وقاسم بيك سلحدار مراد بيك. وعلى بيك أيوب. حسب الأتفاق على الصلح ولإذالة الشكوك العالقة بين أمراء المماليك والباشا، وبات واضحا بأن جزء من المماليك يطالبون بالشراكة فى الحكم. ولكن الباشا يرغب فى الحضور والصلح بدون شروط مسبقه ويتركون له الطريقة التى يراها مناسية فى اكرامهم.

لكن حضور سليم أغا مستحفظان لم يكن لمساعى الصلح. بل كان حضوره لأنه علم بأن زوجته توفيت منذ نصف شهر، فحضر لأجل الحصول على تركتها، ومتاعها وحصصها، ولكنه اذا حضر وجد أن الباشا أستولى على تركتها وأخذ المتاع والمصاغ والجواهر والعقار والحصص لنفسه. كما أخذ حلوانها لذلك اذا ما حضر "سليم أغا" وهو تركى متعاون مع أمراء المماليك، لم يجد شيئا لادار ولاعقار ولامال ولاجواهر– فنزل عند على بيك أيوب بمنزله بعين شمس. ولكن بعد فترة كان الباشا قد علم به. فأرسل إليه ترجمانه ليطمئنه بأنه اذا أطاع الباشا وعمل معه سيعوضه عما له وبالزيادة. وزرع الترجمان فى نفس سليم أغا الأمانى فلم يسعه إلا التسليم والأنتظار. أن تتهى مساعى الصلح على خير، وكلف سليم أغا سريا بمهام يقوم بها فى الصعيد.. وعاد سليم أغا إلى الصعيد يعمل للباشا ما طلبه محتاطا بالكتمان!

وفى تلك الأيام وصل خبر بوصول بعض أهل الباشا مع زوجته وأم أولاده – ابراهيم وطوسون وولد صغير اسمه اسماعيل. كما وصل معها أبن لبونايرته الخاذندار. وكثير من الأقارب. وقد نزلو فى الأسكندرية من المركب. قادمين من قولة. وكان محمد على قد أجل حضور أهله. لأنه كان متخوفا أما وقد طابت له مصر. وأمن ناسها، فأرسل يستدعى بقية أهله وأولاده وأقاربه والأقارب والأباعد فأتوا أفواجا. بل أن كل ما كان فى قولة بألبانيا وجد وشيجة تربطه، أما بزوجة الباشا أو أى شخص من أهله، وقد سافر – ابراهيم بيك الدفتردار. لملاقاة أمه وأهله بالاسكندرية ومصاحبتهم فى حضورهم إلى العاصمة. التى بدأ العمال فيها يجهزون السريات والاثاثات.. ليكون كل واحد منهم له بيته ومخصصاته وخيوله وغلمانه وخدمه وحشمه!

***

وجرى التنبيه على جميع النساء والخوندات وكل من كان له أو لها اسم فى الألتزام. وكل من ترث شيئا من مخصصات زوج مقتول. أو غائب. أو حتى مضموم للقبالى فى الصعيد. أن يركبن باسرهن وزينتهن ويذهبن إلى ملاقاة أمرأة الباشا فى بولاق. وذلك صبح يوم الأربعاء ٢٩ مايوومعلوم بأن اللقاء لن يكون بالأيدى الفارغة من الهدايا والنقوط.

ولكن الست نفيسة أرملة مراد بيك، أصبحت مريضة لاتقوى على الحركة والخروج. فلم يقبل لها عذر. وأمروها بأن تشهل نفسها وتقابل أمرأة الباشا حتى ولو كانت محمولة على محفة– فأضطرت المرأة الثرية القوية – أن تتزين وتظهر فى صورة المرأة الأولى فى القاهرة. وتذهب لملاقاة "أهل الباشا" وأندهشت أن تراهم فى فوضى وعدم هندمة وحتى

زوجة الباشا، كان يبدو عليها الكبر. ولا تعرف كيف تتزين. أو ترتدى الثياب التى أرسلها لها الباشا ومع ذلك فقد رغبت الست نفيسة المرادية بأن لاتشذ وقامت بالتقرب من امرأة الباشا والترحيب بها. وما فى النفس قائم، وتعمل على مدارته.

وبات أهل مصر يحكون ويتحاكون عما تم ترتيبه لأهل الباشا ويتحسرون على التضييق عليهم مقابله هناك أتساع وبهوقه!

***

وكان القصد من دعوة الجميع لإستقبال زوجة الباشا وأقاربه أن يقوم الرجال والنساء بتقديم الهدايا التمنية لها، وقد تجمع فى بولاق خلق كثير من النساء والرجال. وكل منهم يحمل هدية قيمة. يقوم الكاتب بتسجيل مواصفاتها. فلا يستطيع أحد أن يفلت، ولايدفع بهديته أو يستهين بثمنها (فكل عين سيكون أمامها صبع).

***

وسار الجميع فى موكب هائل محاط بالحرس. وشاهد أهل القاهرة "دفعة واحدة" جملة من نساء الكبار وبناتهن ووصيفاتهن، وكانت مبارة فى لبس الملابس الغالية والأثواب المبهجة.

ووصل الركب إلى الأزبكية. وقدمت الهدايا فى بيت ابراهيم باشا. والذى هو بيت محمد على باشا. وقد خصصت هذه السرايا لزوجه وأولاده مؤقتا، حتى ينتهى الشغالون من بناء وتجهيز سراياتهم!

١٦ يونيه ١٨٠٩ م

_ اذداد نفوذ عمر بيك الأرناؤوطى – بين العسكر وهو زميل محمد على وبات الباشا يخشى منافسته له فترصده.اذا اكتسب ثقة قطاع من الأرناؤوط والاهالى يبطل شفاعاته ولايسمح له بمقابلته، وأحس عمر بيك بتلك الجفوة. فآثر العودة إلى بلاده. عرض على الباشا رغبته، فلم يتمسك الباشا به. إذ كان الباشا ماضيا فى التخلص من – معظم الأرناؤوط والدلاة، منذ أتم الصلح مع أمراء المماليك وبدأ توافدهم عليه.. والمماليك جميعهم – من أمراء وتابعين فى حدود الثمانية آلاف إستمال منهم ثلثهم ووزع عليهم المناصب، وذلك على حساب الآرناؤوط المعاكسين له..!

فسافر عمر بيك إلى دمياط ليذهب إلى بلاده. وسافر معه نحو المائة من أتباعه. وقد حملوا معهم صناديق عديدة مغلقة على نفائسهم وأموالهم. وكانوا قد تخلصوا من كل شئ بالبيع. وطلقوا الزوجات، وباعوا جواريهم وتهربوا من دفع تعويضات لابناء البلد من خدمهم، وقيل أن عمر بيك الأرناؤوطى حصل على الكثير من الأموال أخذها معه إلى بلاده. وذلك خلاف ما كان يرسله إلى قولة.. من دفعات..

ولما ابلغوا الباشا بما صحبه معه عمر بيك الأرناؤوطى.. وقال – يأخذ ما يأخذه.. ولكن يغور من هنا..

١٤ أغسطس ١٨٠٩م

_ أستقبل الباشا ثلاثة من الأجناد المماليك. المنسوبين لسليمان بيك البواب. قادمين من وجه قبلى. وقلدهم صناجق وأمراء الوقت. وضم إليهم عساكر من أتراك وأرناؤوط ليسافر الجميع إلى الجهة القبلية لتأديب الأمراء المرادية. وإرغامهم على عدم توقف دفع المال والغلال. وكذلك عين أحمد أغا لاظ. وصالح أغا قوج وبانابرته الخازندار وحسن باشا، وعابدين بيك. وجهزهم للسفر إلى وجه قبلى وعندما أشيعت تلك الأخبار قال الناس "هى الحرب إذن" وفى تلك الأحوال يتسارع الناس فى تخزين الغلال والمواد الغذائية والمساعدة، فترتفع الأسعار. ويعانى الفقراء فوق معاوناتهم ويتعطل السفر بين وجه قبلى وبحرى.

بسبب إستيلاء العسكر على المراكب والدواب. ويتهرب الناس فلا يخرجــون مــن بيــوتهم بسبب فرض التسخير فى التحميل والتعتيق بدون أجر مع ونهب الركوبات الخاصة.

ولم تكن تلك بأشاعات. إذ سافر أحمد أغا لاظ. وصالح أغا قوج وخرجوا بعساكرهم ونزلوا فى المراكب متوجهين إلى وجه قبلى. فى عدة الحرب والنزال مع الخيول.

وما هى إلا بضعة أيام. حتى وردت أخبار بتعطيل التجريدة فى مــسارها- الأخبــار أزعجت الباشا. فأهتم أهتماما عظيما. وقصد الذهاب بنفسه إلى الصعيد. ونبه علــى جميــع كبراء العساكر بتجهيز من معهم للخروج معه. وأن لايتخلف منهم أحد، حتى أولاده ابراهيم بيك الدفتردار وطوسون بيك. وأستعجل التشهيل والطلب. وأقسم بأنه سينتهى من (النزناز) القبلى فى حنيه.

وكان الباشا كثير الحركة لا يمكث فى مكان، إلا ويتوجه إلى غيره ساخطا وغاضبا وملحا بالتشهيل.

وعلى ضوء ذلك تم تحرير دفتر (المطلوبات) دفع به إلى أقليم المنوفية. والغربيــة، والقيلوبية. بطلب أموالا. تذكر بأنها من أصل حساب "الشهرية" وهى ضريبة جديدة مبتدعة، وأقام الباشا. "كتخدا بيك" قائمقامه فى القلعة، ومن ثم أمر بخروج الدلاة والأرناؤوط وبــاقى الأجناد والعسكر!

***

وبالفعل سافر الباشا إلى أسيوط. وأنهزم أمامه المماليك إلى الجنوب البعيد. وصالح البعض، وقبل مضى نصف شهر عاد ابنه ابراهيم بيك الدفتردار بجزء من العسكر. ثم عــاد الباشا فى ثلة قليلة، وصعد إلى القلعة ولم يعلم به أحد إلا والمدافع تضرب اعلانا بوصوله.

وعلى الفور طلب الباشا كشاف الأقاليم وشرع فى تقرير فرضة علــى الــبلاد بمــا يقتضيه نظر الكشاف ونظر المعلمين الأقباط. فقرروا على الأعلى ثمانين كيسا. وعلى الأدنى خمسة عشر كيسا وكان من أثر تلك التجريدة الكبيرة أن تحركت همــم الأمــراء المماليــك القبليين بالحضور إلى مصر. وكل من حضر منهم أنعم عليه الباشا، وابــن البلــد يــسخر، "وناس يطهقوها وناس ينعموها.! أوعدنا يارب".

***

وكان الباشا يعطى الأمراء المماليك أكياس من المال التى يجمعها من الأقاليم، حتــى ترضى نفوسهم وتطمئن. حتى قيل أن الباشا بات يعمل عند أمراء المماليك "جابياً".

وكان قد أنعم على محمد بيك المنفوخ بالتزام جمرك ديوان بولاق. ثم عوضه عنــه، عندما أسنده إلى آخر "بستمائة كيس"!!

وكل القصد من الباشا أن يطمئن له " المماليك" ويستقروا على حال. والسلطان فــى تركيا يستعجله بالاسال جيشه إلى أرض الحجاز. كان الباشا فى حيرة كيف يرســل بقواتــه خارج حدود مصر- وقوة المماليك لم تزل مؤثرة ؟!

(٧)
محمد على
يتودد للمماليك

٦ ابريل ١٨١٠ م

وصل العديد من أمراء المماليك القبالى إلى ناحية بنى سويف، وكثير مــن الأجنــاد التابعين لهم دخلوا (مصر) وبات الباشا مطمئن بأن معظم المماليك رضوا بالصلح معه. وأن يعملوا تحت رايته، وفهم البعض منهم أنهم باتوا من رعيته. ولكن البعض الآخر كان يظــن بأن ذلك خطوة للمشاركة..

وأستمر وصول أمراء المماليك إلى مصر وكثير منهم استقر فى ناحيـــة دهـــشور.. ناصبين الخيام هناك حتى يجهز لهم الباشا مساكن أو يوزعهم على الأقاليم. والباشـــا أهـــتم بذلك، وأرسل إليهم بالتقديمات والأطعمة والهدايا، حتى قبل أن يطلعوا إليه فى القلعة.

لكن الباشا كان يضايقه أن "ابراهيم بيك الكبير" ومعه طائفته.. لم يحضر منهم أحـــد إلى مصر.

وقد غالى الباشا فى الترحيب بالحضور من وجه قبلى، فأرسل لهم قريبه مـــصطفى باشا الوكيل. وعلى كاشف الصابونجى وديوان أفندى. ثم ذهب إليهم ابنه طوسون. وابنـــه ابراهيم بيك.. قدم لهم الهدايا. ثم ذهب الباشا إليهم بنفسه يرحب بهـــم.. وأقـــام بوطـــاقهم. وقيل أن ثمة اختلافات حادثة فى مسألة وظائفهم والتزاماتهم ومخصصاتهم التـــى يغـــالون فيها، والباشا يقول..

انا لن أقصر معكم. لكن أعطونى فرصة فأنتم لستم وحدكم فى مصر.!

كما كان الأمر فى السابق. الآن لكم شركاء استقرت أحوالهم. ولابد مـــن أن نبحـــث معاً عن حلول لاتغضب أحداً. أفيدونى وأنتم أهل خبرة فى حكم مصر كيف نأتى بـــالأموال.. وكل شئ يتسهل بإذن الله.

والباشا أمكن له أن يجذب إلى جانبه عثمان بيك يوسف، وصحبته. وقـــد زاره فـــى القلعة، فأعطاهم أكياس وهدايا. واستمال سليم بيك المحرمجى المرادى وتابعيه..

***

١٦ مايو ١٨١٠ م

المفاجأة التى جاءت بعكس المتوقع. هو وصول الجميع إلى الجيزة بما فيهم "ابراهيم بيك الكبير" ولم يتبق أحد منهم فى وجه قبلى وقد وتجمعوا ونصبوا وطاقهم خارج الجيـــزة، وفى صحبتهم عربان وهوارة كثر. وعلى رأس الحضور كان "ابراهيم بيك الكبير" الذى توقع استقبالا هائلا له ولكن الباشا لم يذهب لاستقباله كما فعل مع شاهين بيك الألفى، ولم يضرب مدافع لهم. بل لم يرسل إليهم يعتذر!

وأنفعل ابراهيم بيك الكبير وقال:

– سبحان الله. ما هذا الاحتقار لنا ؟ ألم أكن أمير مصر

وأربعين سنة. وتقلدت القائمية ووزارتها مراراً؟!

وفى آخر المتمة. أحضر أنا وأتباعى من الأمراء على صورة صلح، فلا يضرب لنا مـــدافع. كما يفعل لحضور بعض الأفرنج؟!

واشيع أن الباشا كان مشغولا، وأنه من الغد سوف يذهب إلى وطاق ابـــراهيم بيـــك الكبير ويسلم عليه.   ولكن ذلك لم يحدث. وأصبح الباشا مبكراً فى اليوم التالى وذهب إلى بيته فى شبرا. وجلس فى قصره. وحضر إليه شاهين بيك الألفى، ولعله جاء متوسطا، فلـــم يقبل الباشا وساطته. وأنفعل شاهين بيك ورجع إلى الجيزة. واذا بالباشا يستدعى عساكره. فاجتمع إليه حشد كبير منهم ولا يدرى أحد ماذا سيفعل. وبدأ اللغط وكثـــر القلـــق حتـــى أن الناس احتارت وتساءلت لماذا يفعل ذلك مع ابراهيم بيك الكبير؟!".

***

غضب شاهين بيك من الباشا. وقد أختلف معه بشأن حضور ابراهيم بيك الكبير مـــع الآخرين – وهم بذلك قوة كبيرة – وعندما وصل شاهين بيك إلى الجيزة شهل حريمه بـــأن يركبن إلى الفيوم. ونقل متاعه وفرشه من قصرالجيزة فى بقية اليـــوم، وكـــسر المرايـــات وزجاج الشبابيك من شدة الغضب. ثم ركب فى طوائفه واتباعـــه ومماليكـــه. وذهـــب إلـــى عرضى إخوانه وقبيلته. ونصب خيامه ووطاقه بجذائهم. واجتمع بهم وتصافى معهم ناعتـــا الباشا بأبشع النعوت. وكان من الحضور عبد الرحمن بيـــك تـــابع عثمـــان بيـــك المـــرادى

المعروف بالطنبرجي. وهو الذى حول دماغ شاهين بيك بالخروج عن الباشا والانضمام لجماعته. ففعل ما فعل. وجعله أمراء المماليك رئيسا للأمراء المرادية.
ورأسه برأس ابراهيم بيك الكبير. وشحذ المماليك اسلحتهم وتوقعوا الصدام مع عسكر الباشا.

لكن فى ذلك اليوم. وقبل المساء، عدى حسن باشا. وصالح أغا قوج، إلى بر الجيزة. وذهبا إلى عرضى الأمراء المماليك، وسلما عليهم وعلى ابراهيم بيك الكبير وباسوهم!

وأكلا عند شاهين بيك. وجرى بينهما وبين ابراهيم بيك كلام كثير كان مركزا على عدم استقبال الباشا لهم وقال حسن باشا لإبراهيم بيك الكبير:

لا أحد يؤاخذ الباشا فأنتم وصلتم إلى هنا لتمام الصلح على الشروط التى حصلت بينكم وبين الباشا، والاتفاق الذى جرى بينكم بأسيوط. يكون تمامه عند وصولكم إلى الجيزة... وليس فى خارجها الباشا غاضب انكم لازلتم خارج الجيزة!

وقال ابراهيم بيك الكبير :

- ماهى الشروط ؟

قالو:

- هى أن تدخلوا تحت حكم الباشا ويتوجب طاعته.
وهو يوليكم عنايته والمناصب التى تريدونها. بشرط أن تدفعوا الفرضة التى تقرر على النواحى التى تكون لكم، وكذلك الغلال الميرى والخراج. وأن يتم الاندماج بينا وبينكم، وتعينو من طرفكم من سيرافق عسكرنا لمواجهة الوهابيين فى الحجاز.

ابراهيم بيك ظل مطرقا ومتفكرا وقال: كده.. كده. فقد فوجئ اباهيم بيك الكبير بالطلب الأخير. وأن عليه أن يحارب معارك محمد على والسلطان، خارج مصر، وقال بهدوء وهو ينظر إلى أمراء المماليك

- الأمر هكذا .. يابكوات؟

وقال حسن باشا :

- نعم. وقد سمعتم ما أنعم به الباشا على شاهين بيك وما اعطاه من المماليك والجوارى لحسان. وشفاعته عنده لاترد. وأطلق له التصرف فى البر الغربى من رشيد حتى الفيوم والبهنسا. مما هو تحت حكمه. ويراعى جانبه للغاية.

وقال ابراهيم بيك الكبير :

- نحن نعلم ما قدمه الباشا لشاهين بيك. وأنه مالا تفعله الملوك، فضلا عن الوزراء. وليس ذلك لسابق معروف فعله شاهين بيك معه أو للبلد. ليستحق به ذلك بل هو لغرض سوء يكتمه الباشا فى نفسه. وشاهين بيك أكتشف أخيراً بأنه شبكة يصطاد الباشا بها غيره. على الأقل يفرق كلمتنا، فأننا نستطيع أن نعدد لك الكثير، وقد سبرنا أحواله، وكيف هو يعامل أقرب الناس إليه. وهم من زملائه الذين مكنوه من الولاية، أو من قدموا له خدمات وتحدوا السلطان من أجله. وشواهدنا على خيانته كثيره يابشوات.

وسأله حسن باشا :

- أتقول أن شواهدك كثيرة.. ماذا تعنى بذلك ؟

قال ابراهيم بيك الكبير:

- كان أول من خانهم .. هو مخدومه محمد باشا خسروا تعرفون ما حصل. ثم خان كتخداه وخازنداره عثمان أغا جنج. الذى والس معه وملك مع أخيه المرحوم طاهر باشا القلعة، وأحرق سرايته، ثم سلط الأتراك على طاهر باشا حتى قتلوه فى داره ليخلوا له الجو.

هذه واحدة ... والثانية. أنه اظهر موالاتنا وصدقنا وأنه بصدد مساعدتنا نحن أمراء مصر الذين دفعنا ثمن هجمة الفرنسيين على مصر. وأوهمنا أنه من عسكرنا. وأتحد مع عثمان البرديسى واظهر له صداقة واخلاص وأخوة وقد عاهده علنا على المآخاة حتى أغراه على والتصدى لعلى باشا الطرابلسى. وجرى ما جرى عليه من القتل. ونسب ذلك إلينا وأمكنه بذلك أن يخلى الطريق لنفسه...

والثالثة... أنه أنشغل معه على خيانته لأخيه. الألفى واتباعه ثم سلط علينا العساكر بطلب العلوفة واشار على عثمان بيك يطلب المال من الرعية حتى وقع لنا ما وقع وخرجنا من مصر على الصورة التى خرجنا عليها.

وهذه ألاعيب محمد على .. أو الجزء المعروف لنا. ولعلكم تعلمون أكثر، فهو أمامكم يلعب على المكشوف. ثم أحضر احمد باشا خورشيد وولاه وزيرا وخرج هو لمحاربتنا، ثم أتضح أمره لأحمد باشا خورشيد وأراد الايقاع به. فعجل محمد على بالعودة من الصعيد. وأوقع بينه وبين جنده حتى نفروا منه ونابزوه وحاربوه..

بما يعنى – أن محمد على – قام يضرب كافة الاطراف ببعضها، حتى بقى هو الوحيد على الساحة يخدع الشيوخ والفقهاء فى مصر – الذين صنعنا نحن منهم زعامات تأتى له بالأموال لتصب في خزائنه ويقودون له أهل مصر.. كالسوائم!

والرابعة. أنه ألقى إلى السيد عمر مكرم والقاضى والمشايخ الكبار فى روعهم بأن أحمد باشا خورشيد يريد الفتك بهم. فهيجوا العامة والخاصة ضده. وجرى ما جرى من حروب وحرق الدور ووقف الحال. وقد بذل السيد عمر مكرم جهده فى النصح معه بما يظهره له من الحب والصداقة.. وراجت على السيد عمر مكرم ألاعيب محمد على. حتى تمكن الباشا وبلغ مراده. وكان أول شئ هو أن يوقع به. وبالمشايخ جميعا، حتى افقدهم سلاحهم. وقد خرج السيد عمر مكرم من مصر وغربه عن مكانته ونفوذه. إذ نقض – الباشا المواثيق والعهود التى قطعها على نفسه. وكل ذلك معلوم ومعروف. فمن يأمن له؟ ومن يعقد معه صلحا؟.. لقد فعلت ذلك تحت ضغوط الأمراء المخدعون ممن يتلهفون إلى هداياه، ولا ينظرون تحت اقدامهم..

***

كان حسن باشا، وصالح أغا قوج يعرفون ذلك عن محمد على. وهو قريبهم، ولكنهم لم يكونا يظنان بأن الباشا مكشوف تماما للبكوات المماليك بتلك الصورة المزعجة.

وقد اذداد احترامهم لابراهيم بيك الكبير، وهو فى شيخوخته بات حكيما، فقد تعشيا معه واستمعا بعد العشاء لما بقى من حديثه وخلاصه حكمته الطويلة فى حكم مصر.

***

قال ابراهيم بيك الكبير عن محمد على :

أعلما إيها السادة اننا كنا بمصر نحو العشرة آلاف "من المصرلية" بين مقدمى ألوف وأمراء وكشاف وأكابر جوفات.. ومماليك وأجناد، وطوائف وخدم واتباع... كنا فى مصر مرفهى المعاش ونتمتع بأنواع الملذات. كل امير مختص ومعتكف باقطاعه. وكنا ننفق كثيرا وننعم على اتباعنا ومن ينتسب إلينا، تنتهز أية فرصة لنقدم الأسمطة للجميع. محدودة فى الأوقات المعهودة، ولانعرف عسكرا ولاعلوفة عسكر، ولاحق طريق، ولاتلك الفرضة التى تأخذ لنفسها الأسماء العديدة.. مفروضة على كل شئ. حتى صار البعض يتنبؤون بأنها ستكون على عدد الانفاس التى بالصدور. وكان فى عهدنا القرى مذدحمة بناسها. والبلاد مطمئنة. والفلاحون ومشايخ البلاد مرتاحون فى أوطانهم. فقد كان لهم مردود من تعبهم وشقائهم فى الحقول وتربية الماشية وامتهان المهن والتجارة وكل الأعمال الوسيطة. كان الفلاح – عيب عليه يترك أرضه وأهله وقريته ويتغرب بعيدا.. الآن يعيش على حواف البلاد

مثل الغجر والنور... أو يهرب فى البلاد والبعيدة. إذ بات المصرى يظهر لائجاً فى الشام وفى مضارب الصحارى..

وذلك كله يعود علينا نحن الكبار بالسوء... أين المضايف التى كانت مفتوحة لأهل البلد وكل غريب وعابر سبيل؟ أين مال الأوقافات الخيرية التى كانت تتكفل بالفقراء والمساكين؟ اين المصروفات الأميرية التى يتفنن "باشا الدهاء" فى جمعها.. ولايدرى أحد أين تذهب. فلا أحد يقوم بمحاسبته، وابنه ابراهيم هو "الدفتردار" وبونابرته قريبه هو "الخازندار".. وأرجو المعذرة باسادة فكل ما أعلمه عنكما أنكما من قواد جيشه.. الذى سيرمى بكم فى حرب الحجاز.. ويريد أن يزج بنا أيضا معكم.

كنا نقوم بجمع المصاريف الأميرية. ونعطى الفقراء ونسدد حاجة خزينة السلطان. ونرسل بصرة الحرمين. ونتكفل بموكب الحجيج وعوائد العربان. وكلف الوزراء المتولين والأغاوات، ومع والقبالجية المعينين لخدمتهم. والهدايا السلطانية وغيرها، ومع ذلك كان يفيض الكثير من المال.. انا أتحدث معكم عن تجربة فأنا حاكم مصر.. ولا أقول ذلك لفض المجلس..

تنهد ابراهيم بيك الكبير متحسرا.. ثم قال:

- أين تذهب أموال مصر وخيراتها؟

أفندينا ما كفاه ايراد الأقاليم، وما أحدثه من الجمارك والمكوس، وما نره على القرى والبلدان من أنواع الفرضة. وما احدثه فى الضربخانه من ضرب الفروش النحاس ويبخل علينا برد حقوقنا.. بأن نعيش بجانبه وهى مصرنا لاتأخذونى.. لسنا وافدين..نحن نشأنا على ترابها فلايقال عنا إلا (المصريين).. هل يقصد أفندينا هلاكنا عن آخرنا.. افيدونى حتى أتجرع السم وأريحه بموتى.؟!

قال حسن باشا متألما:

- حاشا لله يأمير.. الباشا يقول عنك دائما.. والدنا ابراهيم بيك.. ولكن يأمير لايخفاكم أن الله اعطاه ولاية هذا القطر. والله يولى الملك لمن يشاء.. وهو مهما كان حديث عهد بالولاية.. أين تعلم فن الحكم؟.. علينا أن نتوقع منه الأخطاء.. ونفس الشباب وثابة وليست مثل نفوس الشيوخ الممتلئة بالحكمة والتجارب، فهو لايرضى عمن يخالفه أو يشاركه بالقهر والاستيلاء. أعطه فرصه. فإذا صار الصلح تاما ووقع الصفاء.. اقسم لك ياابراهيم بيك أنه سوف يعطيكم فوق ما هو مأمول.

هز ابراهيم بيك رأسه هزات عديدة. كان يحاول أن يصدق ما يقوله حسن باشا. وصالح قوج. إذ لم يكن أمامه من طريق آخر إلا أن يمض فيما رغب فيه الباشا. ومعظم "المماليك" استجابوا للصلح.. وهو آخر من أرغم عليه.

واذا ما غادر حسن باشا وصالح قوج خيمة ابراهيم بيك الكبير، توجها على الفور إلى حيث كان الباشا.. مقيما فى قصره بشبرا.

***

فى تلك الليلة تجمع "المماليك" بخيولهم وهجنهم وعدوا بعيدا عن الجيزة ولم يبق منهم إلا القليل يشهل الباقى. وأجتمعوا مع بعضهم، وكان من الواضح أن الأمر بينهم مقسوم لثلاثة أقسام.

قسم المرادية وكبيرهم شاهين بيك

قسم المحمدية وكبيرهم على بيك أيوب

- وقسم للابراهيمية وكبيرهم عثمان بيك حسن

وكان رؤساء الأقسام الثلاثة يعتبرون ابراهيم بيك الكبير، كبيرهم. وأوصى ابراهيم بيك بمكاتبة العربان الذين يعضدونهم ليستعدوا... وينتظروا، كما أنهم لابد وأن ينتظروا بادرة من الباشا.. إلى أى الاتجاهات تتجه.. هل تنجه للصلح كشركاء، كما يرغب أمراء المماليك. أم

تتجه للصلح... دون المشاركة.. كما يرغب الباشا وعليهم أن ينتظـروا انعاماتـه الجديـدة. معلنا بأن أحوال عديدة تبدلت ولن يعطيهم كل ما يطلبونه.. أى أن مجيـئهم علـى الوضـع السابق.. مستحيل!

ويتبقى الأمر الثالث.. وهوالذى أزعج الأمراء المماليك. عندما علموا باستعداداته.

لماذا يجهز عسكره؟.. ولماذا لم يستقبل ابراهيم بيك الكبير؟!

كما استقبل شاهين بيك من قبل؟!

بل أنهم رأوا الباشا.. يرحب ويستقبل بنفسه أمراء صغار منهم لاحيثية لهم، ويفرق علـيهم بالكثير!

***

١٩ مايو ١٨١٠م

عدى الباشا آخر النهار، ودخل إلى قصر الجيزه الذى كان به شاهين بيـك، والـذى حطم زجاج نوافذه، وكذا عدوا بالخيام والمدافع والعربان والاثقال. واجتمعت العـسكر مـن الأرناؤوط والدلاة. وكل من له شأن وقوة أنضم للباشا فى الجيزة.

والناس تتوقع حصول الحرب بين الباشا وأمراء المماليك لذلك تحرك معظم المماليك إلى دهشور وزنين..

وفى المخيم، والباشا يستعد بالمعدات. فاجأ عسكره بأمر يصدره بأنه سـيدفع لهـم رواتبهم المتأخرة وعلوفتهم وأمر الكتبة بتسليمهم مستحقاتهم عنده. وأعلن أنه دفع مـالهم عنده. فممن يقصر فى تنفيذ أوامره.. سيقتل فوراً. وبقى فى مخيمه عدة أيام حتى كان يـوم ٢٦ مايو ١٨١٠م عندما حضر مشايخ عربان أولاد على للباشا. وفـى علمهـم أن عربـان الهوارة وغيرهم من أهل الصعيد انضموا للامراء المماليك والعداء بين أولاد على وشـاهين بيك لم تزل دمائه طرية لم تجف. فكساهم الباشا، وخلع عليهم وقبل مساعدتهم له. وألبسهم شالات كشميرى. وعدتها ثمانية شالات. وأنعم عليهم بمائـة وخمـسين كيـسا يوزعوهـا بمعرفتهم.. ووعدهم بانعمات أخرى فى القريب العاجل.. وضايق الباشا أنه علم بأن عربـان الهنادى الساكنين على حواف

دمنهور قد ذهبوا إلى الأمراء المماليك. لذلك بيت فى نفسه اذا ما أفاق مما هو فيه سـيكون له رأى ضدهم. ولمح "لأولاد على" بأن ممتلكات الهنادى ستكون من نصيبهم بعد أن يفـرغ من المماليك!

وكان ما يضايق الباشا ويفصح عنه لمن حوله ذلك الانقلاب الذى أحدثه شاهين بيك وافعاله التى لم يتوقعها الباشا. وهو الذى صرف عليه ألوفا من الأموال ذهبت جميعها فـى الفراغ.. عندما سارع والتحم بالامراء المماليك الذى بين له بأنهم فى تفرقه ونزاع دائم.

وكان آخر ما قاله له :

- لاتؤاخذانى ياباشا.. أنا لن أكون الشبكة التى تصطاد بها اخوانى!

***

٨ يونيه ١٨١٠م

خرج حسن باشا، وأبرز خيامه ونصبها بناحية الآثار من "الأهرامات" وخرج محـو بيك الصغير بعسكره وطوائفه ومعهم بيارق. ودفع الباشا بجملة من عساكره عن طريق نهر النيل ليصلوا إلى البنادر فى الصعيد. فليس هناك أحد من المماليك وكل يوم يخـرج عـساكر من (مصر) وهم مستديمون فى العبور. ويخطفون حميـر بـائعى البطـيخ وجمـالهم مـن يصادفونه من أهل البلد.. يكاد يجردونه من أى شئ نافع له. ويقولون له فى أسى:

- نحن راحلون لمحاربة "المصرلية".. وأنتم قاعدين آمنين هنا نحن نوجه الموت وأنتم فى أمان!!

***

فى تلك الأيام بلغ الباشا أن الامراء المرادية والابراهيمية وعدد كبير من المماليك. لهم مراسلات ومعاملات مع الأهالى فى داخل "البلد" والوشاية شملت السيد سلامة النجارى وأخيه وابن أخيه. وأن هذه العائلة ترسل للمماليك ما يلزمهم من أسلحة وأمتعة وخلافها. والوسطاء من "العربان".. يأتون ويذهبون بينهما. وأنه فى الوقت الحالى اشترى النجارى جملة أسلحة وطبول وثياب وخيام، وأخذ أشياء من بيوت بعضهم لأجل أن يرسل بها إليهم خارج الجيزة. وأن جميع ذلك موجود فى وكالته ومخازنه وبيوته التى فى حارة كذا.. وكذا..

فأمر الباشا عسكره بالقبض على السيد سلامة البخارى ومعاونيه من أهله، وحبسه. وهجم على منازله ومخازنه، وضبط أوراقه وما يوجد بها. ولم تجد الضبطية طرفه إلا خمسة خيول وجملة أسلحة عادية يوجد مثلها فى دور السادة للدفاع عن أنفسهم.

ولكن عسكر الباشا طغوا وبغوا فى ممتلكات هذه العائلة ونهبوا متاعها وبددوا شمل كتب أدبيه كانت مخطوطات لها قيمة. ولم يجدوا عنده لامكاتبات ولاشئ يربطه بالأمراء المماليك. بل وجد جواب من أخيه الذى وصل إلى مكة للحج. إذ أنه أرسل بأنه أشترى "أربعة خيول أصيلة" من هناك وهى مرسلة لكم عنى وأن تقدم لأفندينا حصانا أو أثنين منهما لكسب وده!

عند ذلك توجه "محمد أفندى طبل" الذى أسندت إليه الضبطية- إلى الباشا واخبره عن براءة المذكور. وأن الواشى لعبها ضده لنخرب بيته. وأخبره بما عثر عليه من جواب شقيقه الذى فى مكة، فسارع الباشا وأطلق سراح السيد سلامه النجارى. وقبل هديته من الخيول وأنعم عليه. وسأله عن الخيول الأصلية وكي يتعرف عليها، ولما أجابه عن ذلك بما يفيد، عينه الباشا- ناظرا - لشراء الخيول بمرتب ومخصصات.

وكان ذلك بداية صعود السيد سلامة النجارى واخواته فى خدمة الباشا وثراءهم.

ولعل من كان يريد يريد أن يشى للخراب. ندم أشد الندم، أن وشايته كانت بداية السعد لتلك العائلة!

***

أواخر يونيه ١٨١٠ م

لم يكن الباشا يفعل شئ إلا ويقصد شيئا آخر تلك كانت طبيعته، وخاصة مع من ينافسونه. وهو كما فعل بين المشايخ وكان بيدهم تحريك الجماهير جملة ضده. فقد رفع البعض وقتر على البعض، فأوجد بينهم الحسد والحقد والتنافس والباشا بدأ يفعل ذلك مع "امراء المماليك" عندما أغدق كثيرا على شاهين بيك. وعلى من سارعوا وانضموا إليها من الأمراء المتوسطين. كان يقصد أن يفت ذلك فى وحدتهم التى يسعى إليهم ابراهيم بيك الكبير، بكل السبل. إذ أن فى اتحاد امراء المماليك على رأى واحد. ولهم عزوتهم عند فريق من العربان وأهل البلد، فى جميع النواحى.. بحكم أنهم إلى المصريين أقرب من الترك المتعاليين الذين يعتبرون أنفسهم فاتحين، فيملكون كل شئ فى مصر.. حتى أنهم عندما أتو للمعونة فى طرد الفرنسيين أعتبروا أنفسهم فاتحين لمصر من جديد، فآلت لهم أرضها ومصالحها ومنافعها وكان على كل من يرغب فى شئ منها، فليدفع للترك ثمناً مقدراً على شئ كان يملكه.

***

ذلك يفسر.. لماذا لم يرحب بحضور المماليك جملة ومعهم ابراهيم بيك الكبير. وقد ارسل إليهم بشروط جديدة تجعلهم ينقسمون إذ أنه كان مسروراً بانقسامهم. ولم يكن مرحبا بوحدتهم حتى على الصلح معه!

وتلك السياسة التى اتعها الباشا بين أمراء المماليك. أتت ثمارها. فقد حدث الشقاق بينهم ثانية، فقد تبين أن الذين كانوا قد عدوا إلى البر الشرقى وهم ثلاثة أمراء من الألفية – نعمان بيك، وأمين بيك، ويحيى بيك وتصالحوا مع الباشاواغدق عليهم.. وكان أميرهم شاهين بيك الذى جعله الباشا – نموذجا– يحسده أمراء المماليك على ما وصل إليه من نفوذ وثراء بينما يكون هناك من هو أقدم منه وأحق بالرئاسة، فإن الباشا لم يكن يترك أحد فى حالة هدوء، فقد أرسل يبلغ البكوات نعمان وأمين ويحيى بأنه أوصى عليهم شاهين بيك بأن يجعلهم شركاء له وزملاء– (خشداشينه) ويعطى لكل منهم سبعة آلاف (مشخص). ولكن شاهين بيك – الذى لم يكن لديه ذلك الأمر – لم يعطيهم شيئا، وحفظها البكوات له!

***

فلما نقض شاهين بيك عهده مع الباشا وأدرك ملاعيبه. وأنه أنزعج لقدوم معظم المماليك دفعة واحدة واقترابهم من (مصر) عاد شاهين بيك وأنضم إلى ابراهيم بيك الكبير ثانية.. فقد قام الباشا بمراسلة البكوات نعمان وأمين ويحيى. ووعدهم ومناهم بأنهم اذا حضروإليه وفارقوا شاهين بيك "الخائن" المقصر فى حقهم أنزلهم منزلة شاهين بيك التى شاهدوها بأنفسهم بل وأضاف عليها الكثير لهم.

فمالت نفوس البكوات الثلاثة لهذه الدعوة. وقد تذكرو ما كانوا فيه من تنعم فى مصر. وتلك القصور المريشة –والزيجات المريحة – وما كان لهم مخصصا من مال ثابت. ولهم بيوت فى الجيزة وبيوت فى حوارى مصر وغلمان وسرارى، انعم بها الباشا عليهم.

فما كان من الثلاثة وهم فى حالة مطاردة بوجه قبلى، إلا أن أجتمعوا معا وقالوا:

- مالنا والغربة، وتعب الجسم والمخاطر والآنزعاج والحروب، والباشا لم يقصر معنا؟

لماذا نرمى بأروحنا فى المهالك وقوات الباشا تتزايد بينما قوات "المماليك" تتناقص؟

وعليه، كانت نفوسهم تتوق للعودة. واشترطوا العفو الكامل، فأجابهم الباشا متعهدا بتنفيذ كل ما سألوه وتمنوه – وذلك بواسطة "مصطفى كاشف المورلى" وهو معدود سابقا منهم.وأنفصل عنهم، وأنتمى إلى كتخدا بيك "وكيل الباشا" وصار من أتباعه المخلصين.

وعليه فقد شرع البكوات الثلاثة فى مناقرة ومخالفة شاهين بيك، بغرض سرعة الغضب لتقرير مفارقته "لذلك عندما واجهوه، والأمراء الآخرين يعلمون على إلتئام ما بينهم قالوا لهم :

"أنتم زملاء وفى اتحادكم تكمن قوتكم. كيف تتنازعون؟!

فكان أن قام البكوات الثلاثة بتوجيه صدمة لشاهين بيك، إذ قالوا له أمام جمع من أمراء المماليك قد يشتمون فيه!

- قاسمنا... فنحن شركاء... فأن ابراهيم بيك الكبير قسم مع جماعته. وكذلك عثمان بيك، وعلى بيك أيوب.

فقال لهم شاهين بيك :

- وما الذى هو ملكناه حتى اقاسمكم فيه؟!

فقالوا : أنت تجحف علينا وتختص بالشئ الذى يصلك دوننا، فإنك لما اصطلحنا معك مع الباشا. وصرفك فى البر الغربى، اختصيت بإيراده "وهو كذا.. وكذا" ولم تعطينا شيئا. ولم تشاركنا معك. بالرغم من أن الباشا يوصيك علينا إذ كان يقول لك.. أجعلهم شركاؤك.. ولولا أن الباشا كان يراعينا ويواسينا من عنده.. لمتنا جوعا.. فنحن لايمكن أن نرافقك.. وقررنا أن لانصحبك ولا نحارب معك حتى تظهر لنا ما نقاتل معك عليه.

***

وبذلك تفاقم الغضب فى نفس شاهين بيك ورد
عليهم بما يحقرهم، فأشهدوا عليه الشهود، ونقلوا
خيامهم إلى ناحية بعيدة عنه، ساحبين من جملة قوته قواتهم، واعتزلوه، وفارقوه من ساعته وتاريخه.

***

فلما علم بذلك ابراهيم بيك الكبير. تنكد خاطره. وقال:

– لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. أى شيطان جاء بهذا الفشل وخسافة العقل والتفرق بعد الالتئام والاجتماع؟

وذهب للبكوات بنفسه ليصالحهم ويضمن لهم كل ما يطلبوه. ويطمعوا فيه. عندما يتحقق انتصارهم على الباشا ويحدث أن يتملكوا منه شيئا مستقرا.. وقال لهم: –

"انا اعطيكم من عندى عشرين ألف ريال.. قسموها بينكم، وانفقوا منها على تابعينكم. على شرط أن تعودوا إلى مضاربكم وتتفق نفوسكم مع شاهين بيك... فهو من أقررتم به رئيسا لكم.

لكن البكوات الثلاثة. امتنعوا عن المصالحة مع شاهين بيك، وألح ابراهيم بيك الكبير، لكنهم أصروا على الامتناع، فرجع ابراهيم بيك إلى شاهين بيك يريد أن يأخذ شاهين بيك إليهم. وهو يظن أن الخلاف هو خلاف بين زملاء بدون مؤثرات خارجية.. لكن شاهين بيك كانت تأخذه عزة النفس وقال:

– لن اذهب إليهم، من الكبير؟ من يذهب لمن؟!

عموما أنا لست محتاجا إليهم. وقد عزمت على تعيين امراء غيرهم. وعندى من يصلح لذلك، ويكون مطيعا لى، فأن هؤلاء يرون أنهم أحق منى بالرئاسة وينازعوننى الرأى. وبذلك يكون فسادهم تاما. ولا فائدة ترجى من إعادة استمالتهم.

***

وقد سارع البكوات الثلاثة بمن معهم فى التعدية للنهر وانتقلوا إلى البر.. المفضى إلى "مصر" وإلى الباشا..

ووصل إليهم مصطفى كاشف المورلى بمرسوم من الباشا. وجمعهم فى ناحية بنى سويف عند "عبد الله أغا" وضرب لهم شنكا ومدافع. ثم أنهم عزموا على عدم التأخير فى الصعيد، فأسرعوا فى جمع لوازمهم وتحركوا نحو (مصر).. وصلوها بعد يومين. وقابلوا الباشا وخلع عليهم واعطاهم تقادم.. وكانوا قد خلفوا اتباعهم بالقرب من أهرامات الجيزة.. وقد نصب البكوات الثلاثة مضربهم هناك. وفى صحبتهم ستة عشر من كشافهم، والجميع من رتب المماليك، يزيدون على المائتين قليلا. وقد أنعم الباشا على كل كبير منهم بأربعة وعشرين كيسا. وعلى كل صغير بعشرة أكياس، فأشتروا الدور الواسعة. وشرعوا فى تعميرها وزخرفتها وقد تحمل الباشا نفقاتها!

وكان أن أشترى امين بيك دار عثمان كتخدا المنفوخ بدرب سعادة. ودفع له الباشا ثمنها. وعاد وأمر لكل أمير منهم بسبعة آلاف ريال. وجعل المعلم غالى يدفع لهم بعض الانعامات ويجعلها على حسابات الأعوام القادمة! "فكان المعلم غالى يستجيب معلنا طاعته أمام الباشا، واذا أنفرد بخاصته راح يتضرح ويجأد بالشكوى".

***

كان رد فعل شاهين بيك وقد تحقق من عودة البكوات التابعين له إلى "مصر"– أن قلد غيرهم وأعطاهم بيارق وخيول، وضم إليهم مماليك وطوائف، ولكن ما كان يضايق شاهين بيك أن البكوات الغاضبين العائدين كان لديهم كثير من أسرار قوته وضعفه. وبات قلقا بأن يسلطهم الباشا عليه، فيحاربونه ويهزمونه.

وهو يعرف بأن الباشا لايدفع شيئا لا يأتيه بفائدة. فقد فعلها معه، وطلب منه أن يغدر بابراهيم بيك الكبير ولم يقبل!

***

هكذا تمت حيلة الباشا التى أحكمها وحاكها بهدوء. وكأنه يقرأ المستقبل. فقد اشيع فى اقاليم وجه قبلى وبحرى بتفاشل أمراء المماليك وتفرقهم. وأن العقلاء منهم يبادرون ويتضمون للباشا الذى يكرمهم ويجعلهم فى عيشة راضية. وأن الذين يتكرنكون بالصعيد. ويقطعون غلاله وبضاعته عن مصر. أو يوقفون اساليب التجارة فى تلك الانحاء. ما هم إلا طلاب زعامة فارغة. وعلى ذلك بدأ ينفض من حول أمراء المماليك من يؤيدهم فى الخفاء أو العلن. فقد تفكر العربان وأهل البلد. أين تكون مصلحتهم والتنازع يمسك بخناق أمراء المماليك".

فإذا برؤساء العربان وشيوخهم يراسلون الباشا طالبين الأمان والدخول فى طاعته. فمنحهم الأمان وأرسل لهم الهدايا، فحضروا إلى ديوانه، ودخلوا فى طاعته، فأنعم عليهم نعما شخصية. وانعامات أخرى لمن معهم.. بأن يخصص لهم مخصصات. ويوقف لهم أراض وبلاد بعينها. تعينهم على النفقات.!

فى اواخر شهر يونية وأوائل اغسطس ١٨١٠ م حضر إلى مصر كثير من عسكر الدلاة، قدموا من الجهة الشامية. وكذلك حضر أتراك.. فقام الباشا بضمهم إلى قواته، وقد عين عليهم من ينظم ويسهل لهم شئونهم. وكان الباشا قد أرسل إلى الشام وأماكن أخرى من الدولة من ينادى فى الأسواق هناك. طالبا متطوعين للعمل فى عسكرية باشا مصر - بأجور مجزية - وتوفير الأمان اللازم لم يطيع الباشا ويفضل من هم فى قوة بدنية وصحة جيدة. وأن يمتنع أصحاب العاهات. والغرض غير المعلن هو استعداد باشا مصر للسفر إلى الحجاز لمحاربة الوهابية ووقف طغيانهم وابطال مذهبهم.

***

وعلى ذلك فقد قلد الباشا "ديوان أفندى" ليكون ناظرا لمهمات الحرمين. وتوفير كافة المطلوبات لتلك الحملة، فسكن (ديوان أفندى) ببيت قصبة رضوان.

وكان الباشا يستقبل "الدلاة والترك" ويوجههم فورا.. لمحاربة البكوات المماليك فى وجه قبلى. إذ كان يود أن يفرغ من اخضاعهم.. حتى يمكنه أن يدفع بمعظم قوته عبر البحر الأحمر إلى الأراض الحجازية.. لذلك تحرك حسن باشا وصالح قوج وديوس أوغللى ومعهم عابدين بيك.. ترافقهم قواتهم. وصعدوا إلى وجه قبلى. ووردت الأخبار بأنهم ملكوا البنادر هناك دون مقاومة كبيرة، ووصلوا إلى حد جرجا. واستقر "دبوس أوغللى" بمنيه ابن الخصيب وانزعج الامراء المماليك وقد تم حصرهم بناحية قنطرة اللاهون..!

***

واذا ما أصبح عسكر الباشا فى جنوب "المماليك" قام هو نفسه - من شمالهم - وتقدم بعسكره نحو الجيزة مناديا بأن لايتخلف أحد، وبضرورة خروج العسكر المقيمين بمصر.. وعليه ارتحل الباشا بقوانه من جزيرة الذهب ماضيا للتصادم مع المماليك فى معركة فاصلة.

لكن الباشا لم يكن - فى الواقع - متعجلا للتصادم.. فأن مجرد تحركه كان يحدث بلبلة فى صفوف المماليك. فقد ورد الخبر بأن حسين بيك تابع حسين بيك الوشاش الألفى. اراد الهروب بمن معه والمجئ لمقابلة الباشا. فقبض عليه شاهين بيك وأهانه وسلب ما معه من نعم. وكتفه وأركبه على جمل مغطى الرأس وارسله إلى الواحات، وهو نوع من الموت يعتمد على الحظ لصاحبه - إذ لم يكن من عادة أمراء البكوات قتل الأمراء أمام تابعينهم. وكان من حظ حسين بيك. أن احتال حتى فك قيوده. وقاد الجمل إلى عرضى الباشا. وقيل أن الجمل عاون حسين بيك على أن يفك قيوده بعد أن برك واسقطه على الأرض وتلك معجزة

قد لاتكون حقيقية. ولكن حسين بيك كان قد وصل إلى الباشا. فأكرمه. وأنعم عليه. واعطاه خمسين كيسا واستمر مقيما عنده... يراسل من يراسله من المماليك واتباعه ويحضهم على اللحاق به واشمالتهم لنفسه وبذلك كشف ضعف شاهين بيك. ومن الاسرار التى كانت فى حوزة حسين بيك عجل الباشا فى التحرك، فامتلك قناطر اللاهون بالفيوم. وكان البكوات المماليك قد ارتحلوا إلى ناحية البهنسا، وأرسل الباشا وهو فى الفيوم. جرار من- اوقفاص ماء الورد. والعنب والفاكهة وغير ذلك من المصنوعات اليدوية. وكان قد استولى على ما كان مودعا للماليك من الغلال هناك، فأرسل بالحمولات ليتم تخزين ما يرسله على ما عنده – تمهيداً لبيعه للأجانب بميناء الاسكندرية، كما يفعل فى أوقات محدودة من كل عام.. قد تصل هذه المرات إلى أربع أوخمس مراتفى العالم. فيها يحضر الاجانب مع السفن بميناء الاسكندرية ويذهب الباشا ليقبض ثمن الغلال التى يبيعها بالاسعار الغالية بينما يحصلها بأرخص الاسعار من الفلاحين وأصحاب الالتزامات.

***

بينما الباشا منذ ٨ يولية حتى آخر اغسطس يحصرالبكوات المماليك – أعوانه فى جنوبهم، وهو فى شمالهم ويحقق الانتصارات عليهم. أما بالاستمالات. أو بالمعارك غير الحاسمة.. ففى الثانى من أغسطس.. جاء إلى مصر (قزلارأغا) موفد من طرف الدولة فى اسلامبول. وعلى يده أوامر وخلعة وسيف وخنجر لمحمد على- وصحبته مهمات وآلات ومراكب لوازم تشهيل سفر جيش محمد على إلى الأراضى الحجازية "والقزلارأغا" كان أسمه الحقيقى "عيسى أغا" – وقد حضر إلى الاسكندرية. وارتحل إلى "مصر" ووصلها فى ١٤ اغسطس. وطلع إلى القلعة. وضربوا له المدافع ترحيبا وقد استقبله كتخدا بيك، وهذا الأغا أسمر اللون فى لون الاحباشى"من الخصيان خدم السلطان وكان متعاظما فى نفسه، قليل الكلام وفى حال مروره على أى تجمع من الأهالى كان بجانبه شخصان من أعوانه يقوما بنثرالنقود على رؤوس الناس، قطع الذهب وقطع الفضة الاسلامبولى.. فكان يتبعه جمع غفير من الأهالى وخاصة الزعر والحرافيش. ومن لاحيثية لهم.
كل فرد يتمنى أن يقع فى حجره قطعة مما يلقيه، وهى بالنسبة للمحتاج ثروة.
وكان ذلك الأسود المتعاظم قد احضر معه "السكة الجديدة" من النقود وهى دراهم من الفضة خالصة من الغش. وكذلك نقود من الذهب "الفندقلى إسلامى" وعليها صورة السلطان الجديد!

***

"ويوم ١٦ أغسطس"

وهو يوم الجمعة، توجه "عيسى أغا" ليصلى الجمعة فى المسجد الحسينى. وخرج وهو يوزع على الفقراء أرباع الفندقلى. وأعطى خدم الضريح والمسجد قروشا اسلامبولية فى صرر- اقل ما فى الصرة الواحدة "عشرين قرشا" .
وفى اليوم التالى "السبت". عملوا ديوانا بالقلعة كان فى صدره كتخدا بيك، وأحضروا خلعة وصلت بصحبة الأغا – مع فرمان يحمله خازنداره، والبسوه الخلعة لابن الباشا "اسماعيل" – وهو ولد لم يزل فى طور المراهقة". وجعلوه باشا (ميرميران).
وبتلك المناسبة ضربوا شنكا ومدافع وأشيع بأن الباشا انتصر على الأمراء المماليك فى وجه قبلى "وإلا فلماذا المدافع" ولكن ذلك لم يكن حقيقيا!

***

"وفى يوم الثلاثاء ٢١ أغسطس"

ارسلوا من ينبه على المشايخ. وبالاسم. بضرورة حضورهم بالمسجد الحسينى، فبات الناس فى ارتياب وظنون، فلما اصبح الصبح. حضر شيخ السادات. وهوالناظر على أوقاف المشهد الحسينى. وكان التجمع عند قبة المدفن، كما حضر الشيخ البكرى، وأغلقوا باب القبة، ومنعوا الناس من العبور بالمسجد. والناس تتشوق لمعرفة ثمرة هذا الأجتماع، وكل من حضر من المشايخ المشاهير الذى دعاهم "عيس أغا" ادخلوا إلى القبة. فحضر الشيخ الأمير والشيخ المهدى، وتأخر حضور الشيخ الشرقاوى. لكونه كان يبيت فى بيته الآخر ببولاق. ثم حضر الأغا فى موكبه. ودخل القبة. وبصحبته ظرف كبير من الخشب. فتحه وأخرج منه لوحا طويلا.. طوله أطول من ذراعين، وفى عرض ذراع ونصف مكتوب فيه البسملة بخط الثلث مموه بالذهب. وقيل انها بخط يد السلطان "محمود" نفسه

- لكن كيف يكون ذلك وهو شغل محترفين؟

كانت اللوحة موقعة بطرة العلامات السلطانية. فعلقوها على مقصورة المقام. وقرأوا الفاتحة. ودعا السيد محمد المنزلاوى خطيب المسجد بدعوات للسلطان محمود. ثم خلع عيسى أغا. على المشايخ خلعا ووزع ذهبا. ثم خرج الجميع. وركبوا إلى دورهم حامدين الله أن الاموار وصلت لذلك. وهم الذين باتوا ليلة مزعجة خشية أن تكون هناك تدابير لأذيتهم أو مطلوبات مفاجئة ترعبهم! كل ذلك حدث والباشا خارج العاصمة، مشغول بحرب المماليك أواشمالتهم.

"يوم الجمعة ٣١ اغسطس "

وردت أخبار من وجه قبلى بوقوع محاربة بين الباشا والمماليك وأنه حدثت مقتلة عظيمة. عند (دلجة) وعند (البررمان) وكانت الغلبة للباشا على المماليك. وأنه على أثر تلك المعركة حضر(لو طاق) الباشا هناك عدد من أمراء المماليك، وهم من الألفية طالبين الأمان والعمل معه. وأن الباقون هربوا وصعدوا إلى قبلى "فانطلقت المدافع من القلعة ابتهاجا".

***

ويوم السبت أول ستمبر وقت الغروب. حضر الباشا من الصعيد فى جماعة قليلة العدد.. وطلع إلى القلعة دون انتظار لعمل موكب ويوم الأحد الثانى من سبتمبر صعد إليه عيسى أغا وقابله وسلم عليه.

وقدم له هدايه واخبره بأحاديث السلطان محمود عنه وذكره وبالأوامر السابقة بضرورة التعجيل بخروجه إلى الحجاز وليس الباشا الخلعة والسيف بحضرة جملة من الأكابر وضربوا مدافع.. وراحت الأقاويل المختلفة.

***

يوم الخميس ١٣ ستمبر ١٨١٠ م

حضر العساكر والتجريدة التى توجهت إلى قبلى.. وحضر بصحبتهم الكثير من الأجناد المماليك منهم الأسرى. ومنهم المستأمنين، لكن لم يحضر معهم ابراهيم بيك الكبير.

وفى يوم ٢٩ ستمبر ١٨١٠م

غادر "عيسى أغا" بعد ما قبض ما أهداه إليه الباشا له شخصيا وللسلطان محمود – من الهدايا والأكياس والتحف والسكاكر والشربات والأقمشة الهندية. وغير ذلك كثير مما يأتى لمحمد على عن طريق ثغر الإسكندرية عندما يبيع الغلال والأرز والمصنوعات المصرية. بأنواع من المنتجات الأروبية. أو العملات النقدية المختلفة.

ونزل لتشيع عيسى أغا – (العبد الحبشى المخصى) عثمان اغا الوكيل. وسافر صحبته نجيب افندى لاسلايمول ليطمئن الباشا على مزاج السلطان محمود ويتأكد من تسليمه هداياه القيمة.

وفى نفس اليوم، كان الباشا يوفد سليمان بيك البواب، لمصالحة الأمراء المماليك المنهزمين على يد حسن باشا. ويعطيهم الأمان ليعودوا إلى مصر. ويادرا ما دخلك شر".

***

وقد حدثت المصالحة بين المماليك والباشا. وكان حسن باشا قد تغلب عليهم، لكنه لم يعمل فيهم القتل، بل انتظر حتى جاء سليمان بيك البواب وعلى يده مرسوم بأن الباشا يفضل التصالح وجمع الشمل... ووافق على الصلح فورا – شاهين بيك كبير الألفية، ومصطفى بيك الصغير ومراد بيك الصغير، وعلى بيك، وهم من الألفية. ومن غيرالألفية كان احمد بيك الكيلارجي ويوسف بيك ابو دياب، وحسن بيك، ومرزوق بيك ابن ابراهيم بيك الكبير. واحمد بيك تابع رشوان بيك. وابراهيم بيك تابعه. وقاسم بيك تابع مراد بيك الكبير وسليم بيك الدمرجي. ورستم بيك الشرقاوى. ومصطفى بيك ايوب.

ومن الأمراء الكاشف الألفية:

على كاشف الخازندار. وعثمان بيك كاشف الحبشى، ويحيى كاشف، ومرزوق كاشف، وعبد العزيز كاشف ورشوان كاشف، وسليم كاشف ططر، وفايد كاشف، وجعفر كاشف، وعثمان كاشف، ومحمد كاشف أبو قطية، وأحمد كاشف الفلاح، وأحمد كاشف صهر محمد اغا. وخليل كاشف، وعلى كاشف قيطاس، وأحمد كاشف، وموسى كاشف وعدد كبير من البكوات

: ومعلوم بأن لكل بيك أتباع ومماليك وخدم ومعاونين وكل كاشف مأمور على جملة من الغلمان والمماليك والأعوان والزملاء.

وقيل أن ثلاثة أرباع المماليك عادوا إلى مصر من أصل ثمانية آلاف. ولم يتبق فى وجه قبلى إلا الربع.. كبيرهم ابراهيم بيك الكبير –الذى فضل البقاء فى الصعيد متعهدا بأنه سيبقى هناك هادئا طلبا للراحة بعد هذا العمر الطويل.

وقد حضر صالح اغا قوج الذى تم تعيينه حاكما على أسيوط، مع من حضروا إلى مصر من امراء المماليك وكان قد تحارب مع المماليك. ولكن بعد ورود مرسوم الباشا لم يتشدد ضدهم، وسار مع الآخرين فى جمع الشمل واشاعة الصلح بين كافة الأطراف، ودفع معظمهم إلى مصر. ولعل الباشا ابتهج كثيراً لتلك النتائج.

***

(٨)
محمد على
وحفلة القتل

كان الباشا – فى "٢٦ فبراير ١٨١١ م" قد قلد أبنه طوسون باشا "صارى عسكر"الركب الموجه إلى الحجاز، فأخرج جيشه إلى ناحية قبة العزب، ونصب وطاقه وخيامه، وأظهر الباشا الإجتهاد اللازم والحماس وعدم التوانى. وهو ينوه بضرورة تسفير عسكره، وأنه يتعجل بأن يسند إلى بكوات المماليك تلك المناصب التى تخلو.. مع ما هو متوقع من خسائر فى رجاله، وخلو المناصب والمساكن والمخصصات من أصحابها. وأنه سيعين لشاهين بيك ما تركه فى مصر مادام قد حدث الصلح (فمصارين البطن تتعارك).

وكان الباشا قد طلب من المنحمين أن يختاروا وقتا صالحا لإلباس إبنه طوسون القيادة والسفر.. فأختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة.

كان ذلك قد حدث يوم السبت ٢٦ فبراير، ولكن يوم الاثنين ٢٨ فبراير ١٨١١ م طاف (ألاى جاويش) بالأسواق على الهيئة القديمة فى إذاعة البيانات والمناداة على المواكب العظيمة. وآلاى جاويش يلبس الضلمة والطبق على رأسه، ويركب حمار حصاوى كبير وأمامه مقدم بعكاز، وحوله قابجية ينادون بقولهم "يارن آلاى" ويكررون ذلك فى أخطاط المدينة. وقد طافوا بأوراق تنبيه للناس من الأكابر والعسكر وخاصة الأمراء المماليك الألفية وغيرهم. يطلبونهم بالإسم للحضور فى باكر بالنهار إلى القلعة. ليتلقوا هدية وإنعام من ناحية. ومن ناحية أخرى يشاركون فى الموكب الذى يشهل للسفر لذلك ضرورة التنبيه أن يأتى المشارك فى أتم زينة، فإن السفراء الأجانب سيكونون ضمن الحضور وتحدد لذلك الموكب المشهود صباح يوم مارس١٨١١ م.

***

ركب الجميع، وطلعوا إلى القلعة، وطلع أمراء المماليك بمماليكهم واتباعهم وجندهم. ودخل الأمراء ديوان الباشا وصبحوا عليه. فاستقبلهم باشا وضاحكا وجلسوا معه حصة من الوقت، شربوا القهوة وتضاحك معهم. ثم انصرفوا من حضرته إلى حيث الموكب على الوضع الذى رتبوه، فكان فى المقدمة طائفة الدلاة واميرهم يسمى (أزون على) ومن خلفهم الوالى والمحتسب والأغا والوجاقلية وألداشات المملوكية ومن تزيا بزيهم... ومن الخلف طوائف العسكر والخيالة والبيكباشيات. وأرباب المناصب.

وكان بينهم ابراهيم أغا اغات الباب.. وسليمان بيك البواب.. يذهب ويجيئ ويرتب الموكب على افضل ما يكون... فقد كلف بذلك من قبل الباشا شخصيا.وهو تابع فى عمله للكتخدا – وكيل الباشا.!

***

..وفى يوم سوف يسافر فيه الألوف إلى الأراضى الحجازية فى حرب لايعرف أحد نتائجها، فإن الموكب لابد وأن يتسم بالعظمة، وفى نفس الوقت كل من يشارك فيه تستغرقه المشاغل. الذى سيسافر مشغول بتصفية أعماله وقد يترصده الموت. ومن سيبقى يفكر ماذا سيسند إليه من أعمال. وما سيجنيه من وراء تلك الأعمال من مال. وبعض البكوات يتطلعون إلى سابق مناصبهم ومخصصاتهم. ولم يكن أحد يدرى بأنه الآن يتعامل مع باشا فى فن الدهاء وأنه كان قد رتب ترتيبا لهم لايخطر على البال. وجد فيه الحل الأمثل للقضاء

على أهم العقبات التى تفلفه ولعله فكر كثيرا فلم يجد هناك من حل غيره.. هو أن يتخلص– فى هذا اليوم بالذات– من المماليك جميعا– دفعة واحدة – دون النظر إلى مسألة الأخلاق فى ذلك الصراع.. وهوالذى منحهم الأمان، ووعدهم بكل ما يروق لهم.. بل جعلهم يظنـــون أن مصر قد عادت إليهم.. فماذا سيبقى فى مصر بعد أن تغادر – قوة الباشا– إلى الحجاز إلـــى ذلك المجهول؟!

***

كان الباشا لايثق فيمن حوله. ودائرة ثقته بالناس تضيق حتى لايكون فيها إلا أولاده وأصهاره واقاربه. لذلك اتفق مع "حسن باشا، وصالح قوج. والكتخدا – هؤلاء الثلاثة فقــط – علموا بنية الباشا فى التخلص من المماليك. قبل سفر ابنه طوسون بعاسكره إلى الأراضى الحجازية.

***

وفى صباح اليوم المحدد استحضر ابراهيم أغا أغات الباب فى القلعة. وابلغه بنيتــه وما خطط له – فلما بدأالموكب فى التحرك. وفرغ طائفة الدلاة ومن خلفهم جماعة الوجاقلية والألداشات المصرية وانفصلوا من باب الغرب بالقلعة. عند ذلك أمــر صـــالح قـــوج بغلـــق الأبواب وأعلم طائفته بالمراد، فالتفتوا نحو المماليك، وترصدوهم وضربوا عليهم بالبنـــادق. وقد انحصر المماليك وكانوا فى الموكب مسلسلين خلف بعضهم– فـــى المـــضيق المنحـــدر والمقطوع فى أعلى باب العزب، وهى المسافة ما بين الباب الأعلى الذى يؤدى إلـــى رحبـــة سوق القلعة، والباب الأسفل.

هناك أعد الباشا عدة من العساكر، أوقفهم فـــى أمـــاكن مرتفعـــة فـــوق الحيطـــان بالبنادق.. فلما حدث الضرب من الدلاة المتقدمين، وقد التفتوا إلى المماليك وحـــدث بيـــنهم ارتباكا. أراد المماليك الرجوع سريعا وقد أخذتهم المفاجأة فلم يمكنهم ذلك.. لانتظام الخيـــول فى مضيق ضيق وفى نفس الوقت.. أخذتهم البنادق والقرابين من فوق ومن أمـــام وبـــذلك باشا المماليك فى حصار مكين.. والرصاص ينزل عليهم من فوق، فى شبه دائـــرة، ومـــن تحت، يضربهم من كان أمامهم .. ومن كان خلفهم. وذلك فى وقت واحد فكان تساقط القتلى وسقوط الجياد عائقا مضافا.. ليتعطل المماليك عن الهروب ويتم اصـــطيادهم واحـــد تلـــوا الآخر. بل فى جماعات. وحتى الذين سقطوا على الأرض يدعون الموت ومحتميين بالجيـــاد النافقة..كانوا يطلقون عليهم الرصاص حتى يرتعش الجسم ويهمد.. أو تأتيه الرصاصـــات فلا يحرك ساكنا!.

والمماليك عندما نظروا حالهم وما حل بهم. سقط فى أيديهم وأصابهم الهلـــع الـــذى جمد بعضهم فى مكانه حتى تلقى رصاصة وارتمى يتخبط على الأرض.

وهنا اقتحم شاهين بيك وسليمان بيك البواب وآخرون فـــى عـــدة مـــن ممـــاليكهم صاعدين إلى فوق. والرصاص يلاحقهم وينزل عليهم نزول المطر.

والبعض نزع ما كان عليه من الفراوى والمثقلات ولم يزلـــوا منـــدفعين شـــاهرين سيوفهم، حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعدة الأعمدة. وكان الباشـــا محمـــد على والمقربين منه هناك، يرقب ما يحدث وقد تجمد على وجهه الأنفعال!

ورأى كيف سقط معظم المماليك والتنشين كان على الرؤساء، وأسرعوا إلى الباشـــا ليأخذوا عليها البقشيش.

***

كان سليمان بيك البواب،وهو من أمراء المماليك ولكنه منذ زمن انفصل عنهم ويعمل لدى الكتخدا. فقد هرب من حلاوة الروح وصعد مع أمراء المماليك. إلى حائط البرج الكبيـــر، فتابعوا بالضرب حتى سقط، وقطعوا رأسه أيضا..

وهرب كثير من المماليك إلى بيت طوسون باشا يظنـــون أن الالتجـــاء إلـــى بيـــت طوسون باشا فيه امانا لهم ولكن حراس بيت طوسون باشا كان يتلقفونهم بالقتل. واذا مـــا كان عدد اللاجئين يزيد عن عدد الحراس. لاطفوهم وأوهموهم بالحماية. فيدخلون بهم إلـــى مكان...والباقى فى مكان آخر ويقتلونهم ويقطعون رؤسهم، فقد كان الباشا قد خصص لكـــل رأس مكافأة وبقشيشا على أن تكون من رؤس البكوات والكشاف أومن ينوب عنهما..

واسرف العسكر الأرناؤوط والدلاة والترك فى قتل المماليك وسلب ما عليهم من ثياب وسيوف وحلى. ولم يرحموا أحداً وأظهروا فى ذلك كامن حقدهم. وضـــبعوا فـــيهم وفـــيمن يرافقهم متجملا معهم من أولاد الناس المصريين وأهالى البلد الذين تزيـــوا بـــزيهم لزينـــة الموكب أو لطول العمل معهم.

ومعلوم أن للماليك بيوتا فى الحارات تحفظ لهم عيالهم وحريمهم ونفائـــسهم وقـــت الصراعات، فكان المماليك يقربون منهم أولاد شيوخ هذه الحارات ويطبعونهم بطباع السادة. فكان منهم من لايمكن التفريق بينه وبين المملوك الحقيقى. وقد قتل عدد من هؤلاء فى تلك المذبحة المدبرة، وكان البعض يصيح :

– انا لست جنديا ولا مملوكا.."أو يصيح " انا لست من قبيلتهم.. انا فلان ابن فلان " ولكـــن العسكر المتعطشين للقتل والاستيلاء على ما فوق الأبدان. كانوا يقتلونهم ولـــم يـــرق قلـــب أحدهم عن صارخ أو شاك.. أو مستغيث.

***

ولم يكتف الباشا بقتل الذين حضروا موكبه بالقلعة. فقد تتبع المشتتين والهربـــانين والذين لم تساعدهم أحوالهم على الحضور إلى القلعة. بل أنه أرسل يمنى من يقتل مملوكـــا ويأتى برأسه بأنه سيحصل على مكافأة كبيرة...

وبدأت مطاردتهم فى نواحى الأخطاط التى فيها القلعة. فقد قفز بعضهم بخيولهم من فوق أسوار القلعة "هناك من قتل فى ساعتة أومن قتل حصانه وتحته وقدتمكن من الفرار.. كانوا يطادونه ويقطعون رأسه ويأتون بها للباشا. والذين فروا مـــن المماليـــك ودخلـــوافى البيوت والأماكن التى صادفتهم، ربما اختفوا لساعات. ولكن البحث الدقيق. والتهديد بأن من يخبئ مملوكا يتحمل وزره. كشف عن العديد منهم. فكانوا يقبضون علـــيهم أحيـــاء ويظـــن المقبوض عليه بأنه قد نجى من الرصاص.. فيقتل بالسيوف والخناجر دون رحمة..

***

وكان احمد بيك الكيلارجى، ويحيى بيك الألفى. وعلى كاشف الكبيـــر فـــى ضـــيافة الكتخدا بيك.. فسلبوهم ثيابهم ودفعوهم فى السجن تحت مجلس كتخدا بيك. والذى تكاثر فيه المحبوسين. ثم احضروا (المشاعلى) السياف وتم رمى اعناقهم بالسيف فى حوش الديوان. واحدا بعد الآخر من صحوة النهار إلى أن مضت حصة كبيـــرة مـــن الليـــل.. والمـــشاعلية يضربون الاعناق. حتى امتلأ الحوش بالقتلى من الأمراء والكشاف والمماليك.. وفـــى ذلـــك اليوم قضى على كثير من الذين تزيوا بزى المماليك من أولاد البلد.. وكـــان قـــد وعـــدوهم ببحث حالتهم.. ولكن تم قتلهم!

***

ومن مات من مشاهير المماليك وانصرع فى طريق القلعة. قطعوا رأسه. وســـحبوا جثته إلى باقى الجثث مجرورة على الأرض، كأنه ذبيحة وحيوان. وقد ربطو رجلى وشاهين بيك ويديه بحبال وسحبوه على الأرض إلى حوش الديوان، ذلك مـــا حـــدث فـــى القلعـــة.. وحولها..

***

اما أسفل المدينة... فانه عندما أغلق باب القلعة

وسمع بميدان الرملية اصوات طلقات الرصاص، على الفور وقعت كرشة فى الناس. وحدث قلق وتخبط، إذ لم يعرف أحد سر ضرب الرصاص.

لكن الصياح كان يعلو فى الآفاق.. ويصل باهتا اشبه بالضجيج إلى من هم بالميدان. وكان بالميدان كثير من أجناد المماليك فى انتظار الموكب. وكثير من الذين حضرو للمشاهدة.. فانزعجوا .. وهرب من كان بالحوانيت. واغلق الناس حوانيتهم. وظنوا ظنونا مختلفة.. بعضها أن امراء المماليك دبروا تدبيرهم ويستولون على القلعة بعد التغلب على الباشا.. وان عسكر الباشا والسوا معهم.. فالباشا يريد التخلص من عسكره فى حرب الحجاز.. وعسكره لايريدون الخروج من مصر. وتلك "الاشاعة " المدبرة.. جعلت المماليك الذين لم يقتلوا، يبقون فى المدينة فى انتظار ما تسفر عنه الأحداث. الأحداث التى كانت تتصيدهم جملة وفرادى من أجل المكافأة. أومن أجل ما ينهب من ثروات وأشياء المماليك.

***

عندما تحقق العسكر بحصول واقعة قتل المماليك هؤلاء الذين لهم بيوتهم وقصورهم العامرة بالبلد. وطبقا لاتفاق قديم – تبقى قصور الأمراء الكبرى فى حوزة الوالى، والصغرى – أمانة بيد الاهالى من شيوخ الحارات. عامرة بالجوارى والخدم والمماليك الصغار والأولاد والنساء. وذلك يجعلهم يحتفظون بكل ما يسهل لهم الحياة المنعمة، لذلك انتشر العسكر التابع للباشا.. كالجراد فى انحاء مصر – يفتشون عن الأمراء المماليك وعلى من دخل فى نطاقهم، وعلى من تشبه بهم طالبين النهب والغنيمة. ولما كانت بيوت المماليك معروفة ومزوقة ويمكن تحديدها والوصول إليها بسهولة خاصة وقد قامت قوات نابليون بتحطيم أبواب الحارات.. ومنذ ذلك الوقت اختلطت الخطط والأحياء وأصبح الوصول إليها سهلا وميسورا، فقد وصل العسكر إلى تلك البيوت بسرعة لم يتوقعها أحد وولجوا– بل حطموا أبواب بيوت الأمراء المماليك وأعوانهم، بغته.. نهبوها نهبا ذريعا. وهتكوا الحراملك ودخلوا على الحريم، وسحبوا النساء والجوارى والخوندات والستات، وسلبوا ما عليهن من الحلى والجواهر والثياب، واظهر عسكر الوالى الغرباء عن مصر – مكنون نفوسهم الوضيعة.عندما لم يجدوا مانعا أو رادعا يردعهم ويوقفهم عند الأبواب. وبعضهم قبض على يد أمرأة ليأخذ منها السوار، فلم يتمكن من نزعه، فالمرأه باتت سمينة والسوار كان قد وضع منذ زمن النحافة. فلم يتورع ذلك الحلوف من أن يخرج خنجره من حزامه ويقطع يد المرأة من أجل ذلك السوار الذهب!!

***

وعلى أثر تلك المذبحة المروعة فى القلعة. وشيوع أخبارها، حل بالناس الفزع والخوف، وتوقع كل مستور مكروها قد يصيبه. فالمماليك والاجناد الترك كانوا قد تداخلوا فى السكن والأسواق والانصهار مع المساتير – ولدى الترك شعور – بأنهم حكام مصر. والخلاف القائم بينهما– قائم بسبب عملية التقسيم –دون وضع أهل البلد فى موضع الحسبة والاحتساب.

ومع ذلك، فإن قطاعا من أهل البلد تواءمت مصالحه وظهر ثراؤه من الأقتراب الدشيد بالفريقين.

والمشايخ بينهم كبار يعيشون عيشة الأمراء... ورؤوس الفئات المهنية والتجار... يتشبهون فى حياتهم بحياة المماليك فى رفاهيتهما. وقد تبادلوا البيوت والأماكن فقد يكون البيت معروف بأنه بيت أمير من أمراء المماليك ولكنه صار الآن بيت سيد من الأسياد المستورين، والهجوم للنهب والسلب يجعل الأتراك فى حالة من عدم التمايز فيدخلون الحارات والنواحى، فى مقدمة أغراضهم الوصول إلى الثروات والتخلص من الأحياء حتى لايتبقى هناك شاهد يشهد على عمليات النهب التى تم تقديرها وتنفيذها بدون إشارات واضحة.

والبيوت مشحونة بالخيول والجمال والركائب والاثاث والصناديق التى هى دولايب لحفظ الثياب وكل شئ نفيس والثراء يتركز فى احياء معينة. نواحى الأزاهر والمشهد الحسينى. الأزبكية– حول البركة– لكن هناك حوارى عديدة بها بيوت صغيرة للمماليك مشحونة نفائس. كانوا يوزعونها على الحارات لظنهم ابتعادها عن طمع الباشا والترك، وصونها بعيداً عند وقوع الحوادث. لم يكن الترك غافلين عن ذلك بل أن تسليتهم كانت... تنصب على إحصاء الثروات التقرب لمن يكشف عنها. بل كانوا فى حياتهم يرمقون أحوالهم، ويطلعون على أكثر حركاتهم وسكناتهم سرية. فيتداخلون فيهم ويعاشرونهم ويسامرونهم بالليل. ويظهرون لهم الصداقة والمحبة وقلوبهم محشوة بالحقد والحسد.. لهم ولجميع ابناء العرب.. وفى ظنهم أن البلد صارت بحكم الفتح المتكرر هى بلدهم" أما أصحابها القدامى، فيشكرون الله على بقائهم أحياء فى استضافتهم!

***

فلما وقعت الواقعة فى القلعة. وشاع أن الباشا يتخلص من المماليك واتباعهم بالقتل.. فقد بادر العسكر لتحصيل، مأمولهم فى فرصة لن تتكرر.. أن يحوز كل متطوع فى خدمة باشا مصر على ثروة لم يكن يحلم بها.. وهم الذين كانوا يتطلعون إلى النساء.. ولا يقدرون على دفع مهرها.. بل اذا ما توفر المهر.. تترفع النساء عن الاقتران بهم، فإن العظيم منهم كان اذا خطب أدنى امرأة ليتزوج بها، كان أهلها يغالون فى طلباتهم حتى يعجزونه عن المضى فى تلك الرغبة. والواقع أن النساء كانت تعافهم، ويتأذون من قربهم. وإن ألح أحدهم فى الزوج، ممن يرغب فيها تستجير بمن يحميها.. وإلا هربت من بيتها واختفت.. ذلك بخلاف اذا ما خطبها اسفل شخص من المماليك، "اجابته" فى الحال، ووفرت له من ثروتها ما ينقصه!

***

واتفق أنه اصطلح الباشا مع الألفية، وطلبوا البيوت، فظهر كثير من النساء المستترات المخفيات. وتنافسوا فى زواجهم، وعملوا لهم الكساوى، وقدموا لهم التقادم. وصرفوا عليهم لتوفير لوازم البيوت التى تلزم الزواج. كل ذلك كان مرصودا من عيون الاتراك الحاسدة..! فالاتراك جاءوا إلى مصر ليس من أجل الموت فى سبيلها، بل من أجل الثراء والحياة المنعمة وقد صبروا طويلا على ترتيبات الباشا الذى كان يدور حول " الشئ المراد" دورات العابد حول الكعبة يبدو مطرقا ومؤمنا.. لكنه فى واقع الحال... يتحين الفرصة المناسبة لينقض على فريسته.. ويكون دائما مشغول بحساب النتائج..

***

وظهر بين الترك من يحمى جاره من الامراء المماليك ويجعله يأتى بكل ما يخشى فقده إلى بيته.. يوهمه بالصداقة والود المقيم بينهما، ويأتى المملوك بكل ما هو ثمين إلى بيت جاره التركى. وقد يذهب ذلك الجار إلى أن يرسل من طرفه جاره مرسال للوالى ليخلص على من استجارهم وينتهى الأمر بأن يجد المملوك ان كل ما فى داره من نساء وغلمان وجوارى وخيول وجمال وصبيان واموال ونفائس.. منقولة الملكية. وإلا فالموت يترصده، فاذا ما سلم – البيك – إلى عسكر الوالى. يتنازل عماً فى حوزته، وهو يفعلها مقابل أن ينجو بروحه.

***

فأنه بعد استمرار المذبحة.. كان العسكر يقبضون على المماليك فى البيوت ويوهمونهم بأن الباشا الوالى لايقصدهم.. بل يقصد من يعادونه.. ومن دبروا قتله.. فيذهب جملة من أمراء المماليك واتباعهم مع العسكر إلى حيث يكون الباشا، يلوذون به، وبخروجهم من دورهم، يتم مهاجمة تلك الدور ونهبها. وسلب كل ما فيها، ولا يقابلون

الوالى.. إذ يزج بهم فى سجون.. يقف فى باحتها المشعلجى " المكلف بقطع الرؤوس" قد كل ذراعه من قطع الرؤس...

وأصبح فى كل مكان يتم تجميع المماليك فيه أكثر من "مشعلجى" "سياف" يقطع الرؤوس ويحصى ما قطع، لكى يحاسب الدفتردار على ما صار حقا من حقوقه!

* * *

وفى تلك الأيام انتبهت دور كثيرة من الدور التى كانت تجاور دور المماليك، أو أتباعهم. وذلك بأدنى شبهة وبغير شبهة. إذ يدخلون الدار بحجة التفتيش ويقولون :

- عندكم مملوك، أو سمعنا أن عندكم وديعة لمملوك.

سلموه لنا.. أو سلموا الوديعة لنا وخذ إيصالا..

فينكر أصحاب الدار أن عندهم مملوك.. أو لديهم وديعة لمملوك، فيقول رئيس القوة

- إذن دعونا نفتش بأنفسنا، واطلعوا خارج الدار

واذا خرج أصحابها منها، كان همهم البحث عن كل ثمين فى الدار ونهبه وكانوا فى ذلك لايدققون فيمن خرج من الدار. وقد يكون بالفعل فيهم عدد من المماليك... قد تخفوا بين النساء وارتدوا ملابسهن فهم يذهبون ويهربون من القتل فى المدينة... لكن بوصولهم لأى بلد، سيجدون فى انتظارهم صائدى المكافئات التى وعد بها الوالى من يأتيه برأس من رؤوسهم!

* * *

نهب فى تلك الواقعة... بل الواقعات.. أموالا وأمتعه بما لايقدر قدره.. ونهبت دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا من الأمراء المقصودين. بل أنهم من المقيدين فى خدمة الباشا. مثل ذى الفقار كتخدا المتولى خوليا على بساتين الباشا التى انشأها بشبرا. ونهب بيت الأمير عثمان اغا الوردانى، وبيت مصطفى كاشف المورلى. وعدد كبير من الأفندديــة والكتبة.. بعضهم من الترك المسلمين، وبعضهم من المصريين المسحيين.. أو ابناء المشايخ الواصلين.

* * *

كانت حفلة القتل قد تمت منذ صباح يوم الجمعة.. حتى مطلع نهار السبت. والنهب والقتل والقبض على المختبئين والمختفين والفارين مستمرا. وكان اتباع الباشا قد لجئوا إلى أن يتم اغراء عدد من الأمراء المقبوض عليهم. بأنهم اذا دلوا على الفارين الآخرين سيجدوا العفو فى انتظارهم عند الباشا.. فيدلون على المختبئين، أو الأماكن التى قصدوها. أو البيوت التى لاذوا بها. فيقبض عليهم ويتم قطع رأس الجميع!

* * *

وفى صحوة يوم السبت.. ركب الباشا ونزل من القلعة وحوله أعوانه من الأمراء الكبار، مشاة.. وأمامه الحرس والجاويشية بزينتهم وملابسهم الفاخرة. والجميع مشاه ليس فيهم من راكب خيل إلا الباشا.محاطين من خلفه وأمامه وعلى جانبيه فى دائرة.

والفرح والسرور ظاهر عليهم لقتلهم المماليك ونهبهم لبيوتهم وحريمهم وكل ما يملكونه.

وكان الباشا – أمام الجمهور الذى تجمع من الأهالى – إذا مر على أرباب الدرك، وضباط الخطط والقراقولات.. وقف، وبأعلى صوته راح يوجه لهم اللوم على النهب. وعدم منعهم ذلك. والحال أن هؤلاء الدرك. والضباط. والإرساليات التى ارسلت، كانت تنهب أولا.. ثم يأتى بعدهم غيرهم.

وقد مر الباشا بموكبه على العقادين الرومى والشوانين فخرج إليه شخص من تجار المغاربة يسمى "العربى الحلو" وراح يشكوله وهو يقول :

- ايش هذا الحال ياباشا.؟ وايش ذنبنا نحن المغاربة حتى ينهبنا العسكر ويخربون لنا بيوتنا بحجة البحث عن المماليك وودائعهم، ونحن إناس مغاربة متسببون ولسنا مماليك.

وقدم المغربى دلائل على نهب بيته. بل أنه تركه لمن بقوا فيه ونجى بحياته!

فوقف الباشا وأهتم بما قاله المغربى، وأرسل معه ونفرا إلى داره، فوجدوا بها شخصين- احدهما تركى والآخر معاونا له من ابناء البلد وهما يلقطان آخر النهب، وما سقط من النهابين -.. فأمر الباشا بأن يساقا إلى الميدان ويقتلان فى الحال. فأخذوهما إلى (باب الخرق) وقطعوا رؤوسهما!!

***

ثم أن الباشا مضى فى موكبه إلى جهة الكعكيين فلاقاه من أخبره بأن المشايخ مجتمعون وفى نيتهم الركوب وملاقاته فى القلعة. والسلام عليه وتهنئته بالظفر والنصر على المماليك؟!

هنا اطرق الباشا متفكراً. وهو الذى كان يظن بأن فعلته هذه سوف تثير المشايخ وتغضبهم، خاصة وأن بعضهم كانوا مؤيدين للمماليك ووقفوا ضد الفرنسيس وارتحلوا معهم.. وكان ابرز المؤيدين للمماليك السيد عمر مكرم النقيب، الذى لم يأت إلى "مصر" إلا بعد ذهاب حكم الفرنسيس، فقال:

- أنا أذهب إليهم.. ليعرفوا قدرهم عندى!

وكان – فى الحقيقة – منذ تم الصلح مع المماليك، قد حدثت رجة بين المساتير، فأن اعاشئهم ستكون على حسابهم. ولم يزل الباشا فى مسيرته حتى دخل إلى بيت الشيخ الشرقاوى وجلس عنده ساعة لطيفة. وكان قد التجأ إلى الشيخ شخصان من الكشاف المماليك فكلمه الشيخ عنهما، وأنه يتشفع لهما ويرجوه اعتاقهما من القتل وقد وعدهما بذلك. وأن يؤمنهما على انفسهما. لكن الباشا كان مترددا فى اعطاء كلمته للشيخ الشرقاوى.. فقال له الشيخ :

- يا ولدى. لا تفضح شيبتى، واقبل شفاعتى، واعطهما (محرمة الأمان). فقد لاذا بى، وانا تعهدت لهما بالنجاة.. خاصة وهم لسيوا من المحاربين لك.

فأجابه الباشا قائلا :

- شفاعتك مقبولة. ياشيخ شرقاوى لكن نحن لانعطى محرمة أو غيرها، وأنا أمانى يكون بالقول. إذ نكتب لهما ورقة ونرسلها لك بأمانهما.

فسر الشيخ الشرقاوى واطمئن لذلك، وبادرهنأ الكشافين، ثم قام الباشا وركب وطلع إلى القلعة. وأرسل ورقة إلى الشيخ الشرقاوى فيها طلب "بصعود الكشافين إليه فى القلعة". وقال المرسال.

أن الباشا بهذه الورقة يؤمن وصولكما إليه فأطلعلا له هناك وقدموا له فروض الطاعة والولاء فقالا الكشافين:

– وماذا يفعل بطلوعنا إليه هل سيغدق علينا؟ نحن لانطلب منه إلا أن يعفينا من القتل. ونحن هنا فى حماية الشيخ الشرقاوى وعزوته. فلاشك بأن الباشا سيأمر بقتلنا.

ولكن الشيخ الشرقاوى قاطعهما

– أن ذلك لا يصح من ولى الأمر الذى اعطانى الأمان لكما. ولن يكون. وثقا فى الباشا، فقد تعهد أمامى بذلك.. كيف يأخذكما من بيتى ويقتلكما بعد أن قبل شفاعتى. كان يمكنه أن لايقبل شفاعتى؟ ويأمر عسكره بأن يقبضا عليكما ويسوقكما إلى حيث يشاء. ولكنه لم يفعل.

وقد أقتنعا الكشافين. وذهبا مع الرسول إلى القلعة. وعندما وصلا إلى الحوش وجدوه مملؤ بالقتلى من الأمراء المماليك. وكثير من الرقاب مضروبة. بل وضرب الرقاب

شغال فى المحبوسين والمحضرين من المماليك. ارتجا. ولكن حراس من العسكر حضروا على الفور وامسكا بهما وساقوهما إلى السجن وادرجا ضمن المقتولين فى ساعته وتاريخه. وهما يستغيثان. بأنهما حصلا على شفاعة الشيخ الشرقاوى وأن الباشا تعهد بذلك. وأرسل ورقة تفيد الأمان. فما كان إلا أن قرأ أحد الترك الورقة وقال:

- أنها ورقة يطلب فيها حضوركما إلى القلعة وليس فيها أى شئ يدل على الأمان لكما. وعموما سوف نخطر الباشا بأمركما..

وإذا ما دخلا إلى الحبس.. انتهى أمرهما بالقتل.. وكان من يسبقهما يتقدم لتقطع رقبته فى صمت، أو وهو يصلى ويطلق الشهادتين. أما هما فقد انشغلا بالصياح والبكاء "بأن الباشا أعطى كلمة فى شفاعة الشيخ الشرقاوى بالأيجاب.." ولم يكفا عن التصايح والبكاء حتى قطعت رقابهما..

***

وفى ذلك اليوم، نزل "طوسون ابن الباشا" وقت نزول أبيه فشق موكبه المدينة، وقتل شخصين من الهاربين أيضا. وشاع بأن الذين ينهبون يقتلون.. فكف النهب وارتفع.. وأكتفى العسكر بما نهبوه وحازوه فى دورهم. وكان نزول الباشا وابنه إلى انحاء المدينة وتنفيذ القتل فى النهابين علنا.. ولو لم يحدث ذلك،ما توقف النهب والسلب، وكان قد تفشى بصورة مخزية!- عموما حدث انتقال الثروة من فئة إلى فئة فى أسرع وقت ممكن.

أما القبض - والبحث - والتحرى- عن الاحياء من المماليك فمستمر فى مصر وأقاليم وجه بحرى وقبلى. ووقع فى المحظور كل من كان يتشبه فى الملبس والزى من أولاد البلد أو العربان أو حتى بعض الشوام. بالمماليك أو من تباسط معهم وسارع للدخول فى خدمتهم ممنيا نفسه بعهد جديد!

***

وقد نشط "حسن باشا" بعساكره من الأرناؤوط. فكانوا يكبسون على الهاربين فى الدور. أو فى الأماكن التى تواروا فيها واستدلوا عليها بعيونهم، فيقبضون على من يقبضون عليه. وينهبون الأماكن التى تأويهم يحملون ما يمكن حمله من ثياب والنساء والرجال. ويخبئون فى عبهم حلى النساء ويسحبون معهم المملوك فيأخذ كل عسكرى الواحد أو الأثنين.. أو الثلاثة! ويأخذون عمائمهم. أولا.. ثم يعرونهم من ثيابهم ويحصلون على متعلقاتهم الشخصية، وذلك أثناء الطريق. بحجة انهم سوف يفلتونهم من بين أيديهم وليذهبوا بعيداً خارج مصر مرتدين ملابس الفقراء. ولكن يكون عليه أن يدل العسكر على من يأخذ بدلا منه".

دلنا على واحد من الذين يناهضونك، فأنتم لم تكونوا على اتفاق. وكنتم منقسمين إلى أكثر من أربعة أقسام.

وقد يفعلها بعضهم. فيدل العسكر على اماكن خصومه من المماليك حتى يفلت برقبته. وإذا ما حصلوا على تلك المعلومات منه. جعلوه معهم حتى يتحققوا من معلوماته، ويكبسون على الدور التى حددها من يريد أنقاذ رقبته. فإذا عثروا على مماليك، وتحمل صاحب المكان عمليات النهب أوسلب الودائع والخيول والجمال وما يعثر عليه من المماليك، يرسل الواشى مع من دل عليهم إلى السجن أحياء.. وهناك يدرج الواشى ضمن الذين ستقطع رؤسهم. وإذا ما قال له مسئول السجن لماذا لم يتخلص منه ويريحنا. رد بأنه أقسم على كتاب الله بأن لايقتله. وهو ينفذ ما أقسم عليه.. فعلى ذلك المملوك أن يموت بيد غير يد العسكرى الذى وعدو بالنجاة.!

***

وإذا كان الأمير المقبوض عليه كبيرا ومعروفا.. يمكن أن يستحى منه العسكر. طلبوه بالرفق، فإذا ظهر لهم قالو له :

– سيدنا حسن باشا يستدعيك إليه. فهو شفيعك. ويطمئنك بأن تواجدك هنا خطر. وأن حسن باشا لايضمن لك السلامة.. تعالى معنا، فذلك البيت سيأتى عليه الدور بالتفتيش الدقيق.

ويطمئن (الأمير) على أنه وجد من يجيره.. وعلى أى حال ليس أمامه إلا أن يستجيب لرغبة حسن باشا، لانه أن امتنع أخذوه قهرا.. فإذا خرج من الدار فى صحبتهم وطلع من مكمنه – فالعسكر يهجمون، لاستكمال التفتيش والبحث وهم فى الواقع سيأخذون كل شئ ثمين فى الدار – حتى لو كانت ليست دار الأمير المملوكى ولن يتحقق أحد بأن ما أخذه ليس وديعة للمماليك. ويجرى على المأخوذ ما يجرى على أمثاله من المأخوذين، إذ يقتل فى ساعته وتاريخه. إما بيد العسكر. حتى تكون الرأس فى السلال التى تحملها الحمير ليطلع عليها الباشا. أو يذهب به إلى السجن بالقلعة.. ليقف فى صف من عليهم الدور، ويتقدم إلى المشعلجي– ويشغل نفسه فى الصلاة والأستغفار والتعبد .. أو يدخل فى حالة من الذهول حتى ينتهى أمره.

ومع كل ذلك فقد تمكن البعض من المماليك من الهروب وأن يتواروا عن الأنظار. ومنهم من ألتجأ إلى طائفة الدلاة. وتزيا بشكلهم ولبس طرطورا وأجاروه بعد أن نقل أمواله ومتاعه إليهم ومنهم من هرب وخرج إلى وجه قبلى. وقد ساعدته ظروفه بأنه لم يكن بداخل المدينة، أو فى الموكب أو بالقلعة فى ذلك اليوم الطويل المصبوغ بالدماء الحارة!

***

ذلك اليوم الذى حدده المنجمون على أنه المختار ليتحرك فيه طوسون باشا.. سارى عسكره جند الباشا.. إلى الأراضى الحجازية.. وقد تحددت فيه الساعة الرابعة بعد الظهر.. لكن ذلك اليوم بدأ منذ الصباح الباكر والذين قتلوا من بكوات المماليك كانت القهوة التى قدمت لهم فى حضور الباشا فى بطونهم. وضحكاته معهم وملاطفاته لهم لم تزل فى سمعهم. وقد ساعد السقائين والبائعين الجائلين عدد من المماليك للهروب فى أن يتزيوا بزيهم الفقير، ومنهم من أرتدى ملابس الفلاحات وحمل مشنة خضروات على رأسه.. وكأنه يتجه للبيع فى بولاق.. ليعبر إلى الجيزة.. ويخترق طرقا جانبية ويهرب فى الصحارى والغيطان.. لكن من بقى بداخل القاهرة بصورة ما فقد كشف أمر معظمهم وتم قتلهم.. حتى من ألتجأ إلى العربان. قايضوا عليه، وباعوه للباشا.. ولم ينجو تماما إلا من وصل إلى أرض النوبة والسودان.. أو من تمكن من الوصول إلى أرض الشام!

***

واذا كان حسن باشا قد قام بالدور الكبير فى المطاردة لمن كانوا خارج المذبحة، فأن كتخدا بيك لشدة بغضه فيهم، صار لايرحم منهم أحداً – فكان كل من احضروه له – ولو كان فقيرا وهرما من مماليك الأمراء الأقدمين الذين لايهشون أو ينشون– كان على الفور يأمر بضرب عنقه.

وقام كتخدا بيك بأرسال أوراق إلى كشاف النواحى والأقاليم، جنوبا وشمالا.. شرقا وغربا يوصيهم بقتل كل من يجدوه من المماليك، بالقرى والبلدان.. وحدد لذلك مغنما ومكافأة، فوردت الرؤوس منذ اليوم التالى من تلك النواحى. فيضعونها على مصطبة بالرميلة مكومة بداخل سلال من الخوص. ويرصونها على مصطبة السبيل المواجه لباب زويلة!

***

وكان الباشا قد أعاد لأمراء المماليك التزاماتهم فى الريف، وكان كثير من أجناد المماليك هناك مع بعض الامراء ينظمون عمليات التحصيل التى تعثرت..

فعندما وصلت الأوامر إلى كشاف الأقاليم بقتل الكائنين بالبلاد من جنس المماليك. بادروا بقتل من يمكنهم قتله، ومن بعد عنهم أرسلوا لهم العساكر فى محلاتهم. فيذهبون على حين غرة. ويقتلونهم وينهبون متاعهم وما جمعوه من مال. ويرسلون برؤوسهم فى سلال،

أو يتحايلوا على القبض عليهم وقتلهم، فصار يصل فى كل يوم عدد كبير من رؤوس المماليك، تأتى من قبلى وبحرى. ويرصونها على مصطبة باب زويلة وباب القلعة. ولم يقبل شفاعة أحد فى مملوك ولو كان مريضا وهرما وعاجزاً.. والقتل كان يتم فى كل البالغين منهم (أما الصبيان والاطفال من ابناء المماليك) فقد كان الباشا يحصل عليهم ويحتفظ بهم لنفسه.

(ولعله لم يكن قد قرر بعد أن يجعلهم نواة ضباط جيشه، ويدربهم فى مدرسة حربية تنشأ فى أسوان.. ليكون هؤلاء الأطفال والغلمان المماليك، ضمن (ألداشات) الوالى، ويعتبرهم مماليكه. ويدمجهم فى طبقة أولاد الذوات.. وهى طبقته.. التى ستكون دعامة حكمه، وحكم أسرته لما يقرب من مائة وخمسين عاما تالية).

***

والباشا كان يعلم بشدة كراهية كتخداه لجنس المماليك، ففوض له الأمر فيهم. حتى أن (الكتخدا بيك) كان بينه وبين كتخدا الجاويشية السابق – بعض مناقرة أو لكونه صاهر بعض الألفية وزوج أحدهم أبنته. وكان ببلدة الفرعونية، وهى باقطاعه، وقد تعهد بما عليها من الفرضة. فأرسل (الكتخدا بيك) إلى كاشف المنوفية – أن يعامله معاملة المماليك المغضوب عليهم مع أنه أصل تركى فما كان من الكاشف إلا أن يرسل طائفة من العسكر، كبسوا على "محمد أغا" فى الفجر، وهو يتوضأ لصلاة الصبح – فقتلوه وقطعوا رأسه وأحضروها إلى مصر. إذ كانت الفرصة مواتية أن يقوم الأرناؤوط والدلاة والترك، بتخليص اغراض قديمة من خصوم يمكن حسابهم على العائلات القديمة التى كانت طوال عصور المماليك، قد انصهرت معا. فيمكن اعتبارها مصرية خالصة. ويمكن اعتبارها منصهرة فى المماليك. فالمماليك تزوجوا من المصريات المساتير. عندما توقف الوارد من الجوارى الجركسيات. والأعيان تزوجوا بالشركسيات والسوريات والتركيات والأمور كانت مختلطة. وفى ذلك عاث البعض فساداً – وقتلا وذبحا. والهدف كان ذلك – "الحراك الأجتماعى" – الذى لايتم إلا باحداث تلك الفوضى، ليصعد البعض وينزل البعض.. ويتم إعادة توزيع الثروة.. التى كان محمد على قد قبض عليها بيد من حديد.. كل شئ لنفسه، ولحاجته الشديدة للأموال وتنفيذ طموحاته. وهى طموحات شخصية بحته – شاء لها أن تتأثر بالعموم. فتدفع مصر خطوات نحو ظهور "القومية المصرية".. خاصة عندما استعان بالفلاحين المصريين.. المتعلمين منهم، لإدارة مصانعه وقيادة جيشه.. واستخدام الفنيين منهم – بعد أن ثبت ذكاء ذلك المصرى – عندما يعمل مع الخواجات لفترة فيستشف الخبرة فى وقت قياسى!

***

وفى تلك الزوبعة، كانوا يأتون باشخاص من بقايا البيوتات القديمة فيمثلون بين يدى الكتخدا. يسألهم وينفون صلتهم بكثير من البراهين والشهود.. فيكذبهم ويأمر بهم أن يحبسوا.. إما تدركهم العناية الألهية فينجون بعد معاينة الموت ومواجهته مراراً. أو يقتلون ظلما..

***

وفى ذلك قتل فى تلك الأحداث– التى خلصت محمد على من جنس المماليك كقوة مؤثرة – اكثر من ألفى انسان مؤثر أما التابعين فعددة آلاف منهم الأمراء والأجناد والكشاف والمماليك.

ثم صاروا يحملون رممهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة. ثم يرفعونهم ويلقونهم فى حفر من الأرض فوق بعضهم البعض... ولا يتميز الأمير من غيره. وقد بقيت مئات الرؤوس فى سلالها وعلى المصاطب حتى تعفنت وانتشرت رائحتها الكريهة.!

***

وقيل انه لم ينج من الألفية إلا (احمد بيك) زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بيك الكبير، فأنه كان غائبا بناحية (بوش). وأمين بيك الذى كان بالموكب بداخل القلعة عندما حوصر وانهال عليه الرصاص ركب حصانه وكان مدربا.. وتسلق به أسوار القلعة، والقى بنفسه من فوق الاسوار.. فمات الحصان ونجى "المملوك الشارد".. وهرب إلى الشام. أما عمر بيك الألفى فقد كان مسافرا فى ذلك اليوم إلى الفيوم. وحاول أن يتخفى، ولكن كشف أمره هناك بالصدفة وقتلوه وأرسلوا رأسه بعد خمسة أيام من الحادثة. ومعها نحو الخمسة عشر رأسا. كما أرسل دبوس أوغلى حاكم المنيا. خمسة وثلاثين رأسا للمماليك. وحضر من ناحية بحرى ضعف هذا العدد.. وقيل أن عشرات من المماليك وصلوا إلى الاسكندرية. وقدموا أموالا لربابنة السفن فحملوهما بعيدا عن مصر اما فيما عدا ذلك، فقد قتل من الأمراء كل من وردت أسمائهم فى الموكب و"هم الذين أوردنا اسمائهم عندما حدثت المصالحة وعادوا إلى مصر".

***

ولانشغال أهل المقتولين بأنفسهم وما يتعرضون له من النهب والسلب والتشتيت، لم يعوا ولم يسألوا عن موتاهم.. فالنساء اعتبرات غنائم، واذا ما نهبت اموالهم وحليهن فقد سلمن لزيجات لايطيقونها، ولكنها أفضل من الموت.

ولكن "أم مرزوق بيك" ابن ابراهيم بيك الكبير فأنها طلبته بأى ثمن من بين القتلى، حتى عثرت على جسده مقطوع الرأس وتعرفت على جسمه من علامات تعرفها فيه.

كما تعرفت على جمجمته لكونه كان "كريم العين". فأخرجوه وكفنوه ودفنوه فى تربتهم. وذلك بعد مضى عدة أيام من الحادثة!

واجتمع عند زوجة ابراهيم بيك الكبير.. الكثير من أهل المقتولين وخاصة نسائهم. وأقاموا على ذلك شهوراً

***

وفى يوم الحادثة – أرسل محرم بيك – صهر الباشا محمد على وكان حاكما للجيزة فى ذلك الوقت قبل أن يذهب إلى الاسكندرية ويؤسس حى محرم بيك فقد أرسل ماجمعه من المماليك وكان الكثير من الخيول والجمال والهجن وغيرها!

إذ كان لهم مخيمهم فى نطاق الجيزة. وكانوا يحتفظون بالكثير هناك لاستخدامه وقت الخلاف. ولم يكن احد يظن أنه يتعامل مع باشا فى فن المخادعة!

***

فى ٤ مارس ١٨١١ م

نودى على نساء المقتولين بالأمان. وأن يحضرى إلى بيوتهن ويسكن فيها، مع كون هذه البيوت صارت خرابات، فرجع البعض وهن اللآتى لم يحصل لهن كثير من الضرر. وبقى البعض – الأكثرية – فى حالة اختفاء فى الحارات. ومن لم يرجعن إلى بيوتهن قام الباشا بالانعام بها لخواصه وألاديشه. فنزلوها وسكنوها وجددوها وألبسو النساء فيها الحلى والخواتم والملابس الفاخرة – وهى من المنهوبات – بغرض أن يحل التركى" محل المملوكى.. فى بيته ومع حريمه!

***

وانعم الباشا ببيت شاهين بيك، على "حسين أغا" وهو من أقارب الباشا. والبيت لم يكن بحالة سيئة إذ لم يحدث له ما حدث للبيوت الأخرى لكونه ملاصقا لبيت طاهر باشا "المحروس بالعسكر الترك".

***

أما أحمد بيك الألفى، فأنه وصله النذير، فأنتقل من (بوش) وذهب عند الامراء القبالى. وعلى رأسهم ابراهيم بيك الكبير – الذى لم يحضر إلى مصر – منذ حضربضغط من طلاب الصلح فلم يهتم الباشا بلقائه. إذ كان الباشا لايريد ابراهيم بيك فى مصر.
وكان لايلح فى تواجده. أو لعل الباشا وهو يدبر تدبيره لم يكن يريد قتل ابراهيم بيك الكبير.. وفيثير ثائرة افراد مهمين فى الدولة. وكان ابراهيم بيك الكبير حاكما لمصر لمدة طويلة. وينفذ رغبات الباب العالى أفضل مما ينفذها محمد على صاحب الطموحات.
وبلغ اباهيم بيك الكبير ما وقع، وكذلك واقعة مقتل أبنه "مرزوق فأقام له العزاء فى الصعيد.. ولبسوا الحداد، عليه وعلى بقية الأمراء الذين لم يسمعوا ويطيعوا رأيه.. عندما قال لهم "أنتم ستتعاملون مع (باشا فى الدهاء) وأنتم طيبون، بمعنى أقل منه فى ذلك الصراع. فلم يطيعوه.. وظنوا بأنهم عائدين لأمجادهم!)

***

وعقب تلك الحادثة والمذبحة التى أنهت على قوة المماليك جاء من الامراء القبالى رسولا من الأمراء القبليين.
يطلبون العفو من الباشا، وأن يحدد لهم جهة يعيشون منها وفيها، وأنهم لايعتبرون أنفسهم – طبقا لمطالبهم السابقة (شركاء). بل من رعيته.
لكن الباشا لم يجد اختام (براهيم بيك الكبير) على الرسالة، فأهملها ولم يرد عليها!

***

٢١ مارس ١٨١١م

احضروا من ناحية قبلى، أربعة وستين شخصا. وأكثرهم من الذين كانوا مستوطنين بالبلاد هناك. من بقايا البيوت المملوكية القديمة. وقد مضت عليهم السنين العديدة. وقد صاروا من محترفى التجارة والزراعة والرعى وليسو بمقاتلين.. فلما احضروهم إلى مصر ابقوهم فى محبس بمصر القديمة وأبلغوا الباشا بأمرهم. فسأل من حوله.
ماذا ترون فيهم
– فأنقسم الحضور إلى رأيين متناقضين..
رأى يقول أن لاخطر منهم، وأن شعب مصر مندمج، ويكفى أننا تخلصنا ممن يريدون الإمارة.
ورأى يقول – فلنحذر الثأر – أنه يمتد إلى سابع جد. وضرورة تخليص الجنوب من طائفتهم مهما كانت واهية. ولابد وأن يحل محلهم فى دورهم ووظائفهم اناس نرضى عنهم..
وانقطع الباشا، ولم يعلن ميله إلى رأى من الرأيين. وبقى هؤلاء فى محبس قديم بمصر القديمة لعدة أسابيع ثم اوفد إليهم هناك المشاعلجية بساحل البحر.. وقام المشعلية بقطع رؤوسهم، ورموا بجثثهم إلى البحر وأتو بالرؤوس فوضعوها تجاه باب زويلة .. ليراها الناس كما رأوا غيرها!!

***

٣١مارس ١٨١١ م

كان الباشا قد هدأ قلقه من ناحية المماليك، فقد قضى عليهم تماما. وحل هو أبا لأولادهم الصغار!
وكان قد قضى على سطوة "المشايخ والفقهاء" من أهل البلد، فأبطل تحركهم ضده وقتما يشاؤون. وهونفسه استغل ذلك ليصعد إلى دكة الولاية..

ولم يتبق من أما نيه، إلا أن يتخلص من "النظام العتيق للعسكر الارناؤوط والدلاة" وحتى الترك الذين انضموا لخدمته.
وهو الذى أطاح بكل رئيس أو زميل ينظر إلى ما بين يديه. فقد جمع العسكر جملة فى حملة الحجاز ويتمنى أن لايعود أحداً منهم إلى مصر – فهو حتى اذا كسب المعرك.. سوف يبقيهم بعيدا عن مصر، إذ كان يفكر فى جيش جديد، يكون فى "نظام الجيش الفرنسى" ويستخدم نفس أسلحته!

***

وفى ذلك اليوم قلد الباشا. ابن اخته "مصطفى بيك". وجعله كبيرا على طائفة الدلاة. وكان قد احضره من ناحية الشرقية ليذهب بالدلاة، إلى قبلى.. وأقام بدله فى كشوفية الشرقية.. "على كاشف" بن أحمد كتخدا (وكيل الباشا). وفى نفس اليوم، قرر الاستغناء عن مجموعة من الدلاة أرادوا الرئاسة منهم، وعددهم نحو الخمسمائة. فاعطاهم باقى علوفتهم ومخصصاتهم وسمح لهم بالسفر إلى بلادهم. واستمر مصطفى بيك مرتحلا إلى وجه قبلى. وكافة من له نسب بالمماليك، كانوا يصفون اعمالهم ويتوغلون إلى الجنوب بقدر اقترابه منهم!

***

اما وقد انقضت "حفلة القتل" فقد اهتم الباشا بأن يكون لابنه طوسون.. موكبا عظيما، فهو خارج لمحاربة الوهابيين بالحجاز. فنبهوا فى ليلتها على اجتماع العسكر والتزين، ومعرفة الترتيب فى الموكب. كما أعلموا رؤوساء الطوائف وشيوخ الحارات واعلنوا فى الاسواق بذلك. ليحضر الجميع لوداع الموكب.

***

ونزل الباشا فى جامع الغورية ليتفرج على الموكب وفى صحبته "حسن باشا" واستعد لذلك السيد محمد المحروقى "الذى سيلازم الحملة" وقد أوصى ابنه طوسون بأن يستمع لمشورة "السيد المحروقى" وفى ذلك تم فرش الجامع بالفرش والمراتب والمساند، فمر الموكب والباشا يشاهد.. مع المشاهدين.. وكان مرور الموكب من أمام الجامع.. فى أوله طائفة من الدلاة، فلما فرغوا. مروا بعشرة مدافع كبار على عربيات. وعربيتين تحملان (العنابر). وخلفهم طوائف العسكر المشاة. ارناؤوط واتراك.. وسجمان، وهم كثيرون– مختلطون من غير ترتيب، واستمر ذلك لمدة طويلة، فكل مجموعة تمشى مع رئيسها..
ثم بدأ موكب كبار الجنود، ركبانا بطوائفهم وفرسانهم. ثم مر موكب المحتسب واغاة مستحفظان (محافظ العاصمة) ثم جاء الدور على طوائف صاحب الموكب "طوسون باشا".. ونائبه. وهجنه، ثم الجاويشية والسعاة والملازمون. وخلفهم، كانت "النوبة التركية".. تدق طبولها وتعزف بمزاميرها.
وكان كل ذلك يقابل بالتهليل والتصفيق من الأهالى، والباشا فى غاية السرور.. أنه بدأ الآن يطمئن بأن ما حققه من انجازات.. سوف تأتى ثمارها فى القريب العاجل!
وذهنه مشغول... دائما مشغول بالبدائل..
ولكنه لم يكن يضع "أهل البلد" فى حسبانه..
إذ كان يفكر بأنه اذا ما حرق "الأرناؤوط والدلاة" سوف يؤسس جيشا من "السودان" والمصريين حوله يزيطون ويصفقون ويتلهون..!

***

وكان خلف الباشا، يجلس "ابراهيم بيك الدفتردار".. كان الأقرب للمصريين.. ولم يكن له دور يذكر– حتى ذلك تاريخ – مع أن أمجاد دولة محمد على.. سوف تتأسس على كاهل ذلك الأبن، فقد جاء محمد على لابنه طوسون بالباشوية، ونصبه سارى لجيشه، وجاء

لابنه الصغير اسماعيل بالباشوية.. وهو لم يزل مراهقــا، ولــم يــزل ابــراهيم.. بيكــا.. ودفترداراً..

والبعض قالوا.. "أنه ليس أبنه..ولكنه ربيبه".. وقالوا : هو ابن زوجته التى كانــت تكبره، وكانت عند زواجها به وأرملة!

***

ومع أن محمد على كان شديد الذكاء والدهاء.. إلا أنه لم يكن قد تبــين حتــى هــذه اللحظة جوهر الشعب المصرى وعبقرية. ابراهيم القائد..

والذى سيعلوا شأنه وشأن كثير من المصريين الفنيين والعسكريين والبحارة عنــدما يجبر محمد على بأن يستعين به وبهم لتوسيع رفعة املاكه وتجديد شباب الدولة العثمانيــة وكاد أن يفعلها. فى السنوات الثلاثين التالية.

السنوات التى كان قبل أن تختنق مصر بضغط قبضة الأنجليز القوية على الأوضــاع السياسية والأجتماعية والأقتصادية التى أهم ما يتطلع إليه الاســتعمار "للــشعب المــصرى" ودوره فى دولته الحديثة..!

عبد الفتاح مرسى

سيدى بشر

٢٠٠٦ -٢٠٠٨م